انتظار
مذكرات مغتربة
حنان سعدي

حنان سعدي

انتظار

مذكرات مغتربة

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب: انتظار _ مذكرات مغتربة

المؤلف: حنان سعدي

تدقيق لغوي: حنان سعدي

تنسيق: عبير بوتلة

تصميم الغلاف: دينا خليل

الناشر: دار أقلام للنشر الإلكتروني

إيميل الدار: Aklameditions07@gmail.com

لمتابعة الكاتبة حنان سعدي: Hanane saadı

رقم هوية الكتاب الإلكتروني (EBIN): 1-48-1-231015

إهداء

إلى أمي التي وعدتها بأشياء كثيرة في لحظة فرح

لكنني خذلتها من دون أن أدري..

أرجو أن يكون عملي هذا بداية لأفراحك.

حنان سعدي

عندما تنتظرين رجلا ليحسم أمره بشأنك، لن تتقدم حياتك.

مستحيل أن ينشغل قلبك بأمر آخر، لو أنك تراهنين على شيء قد لا يأتي.

بإمكانك بناء الحياة التي تحلمين بها من دونه.

يمكن أن تبدئي من اليوم..

لكن أولا، عليك رفع قلبك من على الطاولة

لديك بضع سنوات ثمينة لتفعلي ما أنت بحاجة لفعله.

لا تهدريها لأجله.

لانج لييف

باريس 2012

هنا سيبدأ كل شيء...

في هذه المدينة التي أخبرتنا مرارا أن الحياة ليست بتلك السهولة التي نظن.. سنحمل أوجاعنا في داخلنا وندعي القوة والأناة في كل خطوة.. سندعي كذبا أننا أقوياء في وجه العاصفة فقط كي لا نخر يائسين على ركبنا.. لكن إلى متى ذلك؟

تخونني الإجابة، وتهزأ بي شوارع هذه المدينة.. تذكرني بأول يوم أتيت فيه إلى هنا، وذكرى سعادة مؤقتة قضيتها مع " يعقوب " وتلاشت في لمح البصر.. قلت لنفسي بأنني سأتخطى الأمر، وسأعيد ترميم ما تبقى من حياتي لأستمر.. قلت لنفسي بأنني لن أنبش الماضي أبدا، ولن أحاول أن أبحث عنك ثانية.. لكن ها أنا

ذا جالسة في قسم للشرطة أنتظر بيأس خبرا يعيد الحياة إلي قلبي. في الخارج طالعني مشهد خيالي لأشخاص يسيرون فوق طبقة بياض براقة.. آذار مازال باردا هنا. تاه بصري في الأفق البعيد.. أبعد من تلك السماء الرمادية التي ما تزال تذرف ندفات الثلج منذ البارحة.. ترى أين أنت الآن؟! وماذا تفعل؟ فجأة شاهدتك هناك أمامي، كنت أرى تلك الابتسامة التدريجية تتشكل عبر الغيوم، ودون وعي مني ابتسمت للوهم الذي صنعته بنفسي.

آه يالي من فتاة حمقاء بليدة! الجنون هو آخر ما تخيلته في بلاد لا أعرف فيها أحد، لما لا أزال هنا؟ لما أستمر في نشر هذا الألم داخل قلبي؟ وكما لو أنني لم أكن أنتظر جوابا لذلك انتفضت واقفة وغادرت قسم الشرطة.. لعلّي سأراك ثانية لكن ربما ليس اليوم.

في طريق عودتي، أخذ الثلج يتساقط بغزارة، يمكنني أن أشعر ببرودته تتسرب عبر نسمات جلدي مع ذلك لا أكترث، كأنني مت منذ زمن وكأن هذا العالم برمته ما عاد يعنيني، وجسدي هو مجرد

شبح مرعب يطوف في الشوارع الباردة يبحث عن شيء هو نفسه لا يعرف ما هو. أرفع ساعة يدي أطالعها بين الفينة والأخرى بترقب، كمن ينتظر شخصا ما لكن في الحقيقة أنني لا أنتظر أحدا، هي فقط محاولات يائسة لتجاوز الوقت الذي يزحف كسلحفاة بطيئة. دقيقة .. اثنتان.. ثلاثة.. يصدر فجأة رنين جرس مدوي من الكنيسة يصم أذناي، ومن الجهة المعاكسة يندفع نحوي رجل طويل القوام يعتمر قبعة سوداء تكاد تحجب عيناه، وتندفع على إثره فتاة أسمع صوتها وهي تصرخ :

_ أوقفوه.. أوقفوه.. لقد سرق حقيبتي.

أتجمد في مكاني لبرهة ثم أركض خلفه لا شعوريا ولا أدري لماذا، ولكن سرعان ما أتعثر وأسقط على الأرض، فتسقط مني حقيبتي وتتبعثر معها جميع أغراضي هنا وهناك. تتوقف الفتاة وكأنها نسيت غايتها الأساسية وراحت تساعدني على الوقوف:

_ أوه يا إلهي هل أنت بخير؟

_ نعم، آسفة لم أستطع اللحاق به.

_ لا عليك، لم يكن فيها شيء مهم على أي حال.

أنظر إليها أخيرا. فتاة عشرينية جميلة القوام، ترتدي تنورة قصيرة من الجلد مع بوت أسود، ومعطف من الفرو الناعم بنفس اللون، تبدو منغمسة في التفكير حتى أنها لم تنتبه لنظرتي الملقاة عليها. بعد برهة تمد يدها نحو حاجياتي الواقعة على الأرض لتجمعها لكنني أسبقها إلى ذلك قائلة:

_ لا بأس لا عليك، يمكنني فعل ذلك بنفسي.

تبقى رغم ذلك واقفة تطالعني بأسف، إلى أن يرن هاتفها وأسمعها تهرطق عبره بلكنة عربية، تشبه تلك التي يتداولونها في شمال إفريقيا :

(نعم... في أسوء حال.. لقد سُرقت حقيبتي للتو.. لا لا داعي لذلك.. أجل.. لا ليس بعد... أجل.. لا أدري.. سأتولى البحث بنفسي عن شقة للإيجار... طبعا!!).

تكلمت على ذلك النحو لدقائق طويلة، وفي الأخير نوهت بأنها توفر بعض المال لاستئجار الشقة، وبأنها ستطلب المزيد إن لزم الأمر، ثم أغلقت الخط. فجأة لمعت برأسي فكرة. فقلت لها دون مقدمات:

_ هل تبحثين عن شقة للإيجار؟

حدجتني الفتاة بنظرة استغراب طويلة فسارعت للاعتذار قائلة:

_ آسفة، استمعت على مكالمتك دون قصد.

_ نعم (ردت) أظن ذلك!

– حسنا، يمكنني مساعدتك!!

– وكيف ستساعدينني؟

قلت:

– أنا أسكن في شقة تتكون من غرفة جلوس ومطبخ كبير وحمام وغرفتين، إحداهما هي غرفتي.. أتريدين استئجار الأخرى؟

أبعدت الفتاة شعرها خلف أذنها. كان تبني اللون، ينسكب طويلا خلف ظهرها، ومثبتا بدبابيس على شكل فراشة. بدا وكأنها تأخذ كل وقتها في التفكير، ثم وبعد صمت موارب غمغمت:

_ لكنني لا أعرفك.

_ حسنا لنتعرف (قلت بنية طيبة) أنا ولاء من سوريا، عمري 26 سنة، مهندسة معمار.

_ لا، أنت لم تفهمي قصدي (ضحكت) لما علي أن أثق بك؟ آسفة على ما سأقوله، لكن من يضمن لي أنك لن تخدعينني؟

أخدعك! تجهمت تعابيري فجأة، وترددت كثيرا قبل أن أجيبها:

_ أنا لم أفكر في شيء كهذا، كل ما في الأمر أني رأيت أنك عربية مثلي ومن واجبي مساعدتك.

تأففت الفتاة على نحو خافت، ونظرت إلي. كان في نظرتها بعضا من التردد والارتياب، مع ذلك حين تكلمت ثانية بدا صوتها هادئا:

_ هل أزعجتك؟

_ لا بأس، اللصوص كثيرون هنا ومن حقك أن تخافي.

اقتربت مني ووضعت كفي بين كفيها، فظننت لبرهة أنها ستعتذر بأسلوب لطيف ثم تمضي لحال سبيلها، لكنها فاجأتني بالقول:

_ اسمي سوزان، أنا من الجزائر تشرفت بك.

_ الشرف لي عزيزتي.

***

لاحقا.. بعد مدة، حين انتهى بنا الأمر في مقهى على ضفاف السين قلت لها بأنني أقيم في شقة صغيرة بالحي اللاتيني منذ سنة تقريبا، وبأنني جئت إلى هنا لأكمل دراستي الجامعية، لكن.....!

تعثرت كلماتي فجأة، خفت إن رويت لها قصتي كاملة سترفض فكرة الإقامة معي بشدة، فراح صوتي يتضاءل شيئا فشيئا حتى صار همسا:

– بسبب ظروف عدة لم ألتحق بالجامعة (قلت)، وكنت أبحث منذ مدة عن فتاة ما تشاركني السكن، ثم سمعتك تتحدثين عبر الهاتف والبقية تعرفينها..

كانت سوزان إلى ذلك الحين تنصت لي دون أن تطرح علي أي أسئلة، وبعد صمت موارب غمغمت:

_ هل مكثت في شقة لوحدك طيلة هذا الوقت؟ أقصد ألم يكن لديك صديق.. زوج.. عائلة.. يشاركونك إياها؟

لم أكذب في حياتي.. لم أتخيل يوما أنني سأنساق خلف السبل الملتوية.. ليس وقد فُطرت على الصدق منذ نعومة أظافري، لكن حين تكلمت ثانية لم يكن في فمي إلا جواب واحد أقدمه لها:

_ لا!

بعدها، دفعتُ الحساب وخرجنا معا إلى الرصيف، كان الثلج قد توقف عن التساقط أخيرا، وعادت الحياة للمدينة التي كانت شبه نائمة منذ قليل. الأرصفة مزدحمة بمارة يغدون ويروحون في كل مكان، وكلاب يقودها أصحابها، وأطفال يلعبون بالثلج، توجد أيضا برك مياه في الطرقات التي نجتازها أنا وسوزان بصمت. حين نصل إلى الحي اللاتيني أخيرا، أشير لها إلى شقتي قائلة:

_ حسنا، ها قد وصلنا.

وضعتُ المفتاح في القفل فانزلق الباب منفتحا على شقة متواضعة. رأتْ على يسارها غرفة الجلوس تتوسطها نافذة واسعة مطلة على الشارع العام، وإلى جهة اليمين رأتْ المطبخ، ثم رأتْ الغرف

والحمام والمرحاض أيضا... لم تترك شيئا إلا وعاينته بدقة كما لو كانت كاشف جمركي عالي الجودة. في الأخير قالت:

_ شقة مناسبة جدا، أتمنى فقط أن لا نختلف على سعر الإيجار.

فقلت مدارية فرحتي:

_ لا، لا تقلقي من هذه الناحية.

_ حسنا إذا اتفقنا.

وافقتها على ذلك بإيماءة من رأسي، فاستطردت:

_ سأنتقل في الغد إذا، وسأجلب متاعي هذا المساء إن لم يكن هناك مانع؟

_ لا أبدا، (أجبتها بلطف) هذا بيتك.

وفي رمشة عين وما إن غادرت، حتى رحتُ أنظف المنزل وأرتبه جيدا. أزلت كل الآثار المتبقية ليعقوب من ملابس وأحذية وصور،

حتى لا يأتي يوم وتكتشف كذبتي على حين غرة.. شعرت أنه من الآن فصاعدا علي أن ألتزم بالانضباط الذاتي، بوجود شخص ما سيشاركني منزلي، وربما في وقت لاحق.. حياتي.

مساءً عندما عادت، ساعدتها في إدخال حقائبها إلى المنزل، ودعوتها لشرب فنجان من القهوة معي... وهكذا وجدت نفسي أصغي لتدفق لا نهاية له من الثرثرة المذهلة: تفاصيل رحلتها من الجزائر إلى باريس، والتقائها بأصدقاء لم ترهم منذ سنوات عديدة. أما أنا فكنت صامتة، أتصنع ابتسامة بلهاء بين الحين والآخر، وبعد حوالي نصف ساعة انتهت الثرثرة أخيرا، وتمنت لي نهارا سعيدا قبل أن تهم بالانصراف.

وها أنا وحدي مجددا..

في شقة باردة كالثلج.. لا أحد لأتكلم معه.. لا أحد لينصت إليّ.. فقط أنا أقف وسط صمتي، عقلي صاخب للغاية لكنني أبدو هادئة في المحصلة، وهذا ما يثير أعصابي حقا.. لا يعجبني هذا

الهدوء.. هذا الصمت.. يذكرني ببركان يوشك على الانفجار في أي لحظة.

في الصباح..

استيقظ على صوت الهاتف، تمنيت أن يكون يعقوب على الخط، بل كنت متأكدة من أنه هو عندما تسرب صوت امرأة ما إلى أذني ليخيب ظني.. امرأة تقول أنها المسؤولة عن شؤون الموظفين في شركة للمقاولاتية، فأتذكر أنني منذ بضعة أيام قرأت إعلانا يخص هذه الشركة يبحثون فيه عن مهندسين جدد، ودون اهتمام صادق أرسلت CV الذي يحمل جميع معلوماتي ورقم هاتفي، ومن هنا جاءت المكالمة.

كانت المسؤولة تخبرني أنهم درسوا ملفي جيدا وأثنوا على مؤهلاتي العلمية ويريدون مقابلتي في أقرب وقت، فكان الجواب:

_ حسنا، متى يمكنني القدوم إليكم؟

_ من الآن إن كان هذا يناسبك.

_ طبعا يناسبني.

(أنهيت المكالمة)

ورحت أعدو نحو الحمام، استحممت على عجل، صففت شعري، ولبست فستانا ليلكيا تغطي قصته الفضفاضة جميع انحناءات جسمي لأنني محجبة، ثم غطيت شعري بحجاب بلون البنفسج، وقبيل خروجي كتبت رسالة لسوزان في حال قدمت للمنزل ولم تجدني، أقول فيها:

« أنا في الخارج، لدي مقابلة عمل.. لا تقلقي سأعود قريبا.. »
ولاء.

ثم أستقليت الميترو الذي قطع بي أميالا قبل أن يتوقف أخيرا في نهاية الخط الثامن، واستكملت طريقي من هناك سيرا على القدمين. كان مقر الشركة شاهقا جدا، ذكرني بتلك المباني الضخمة في مدينة نيويورك، والتي تحتوي نسبه كبيرة منها على الزجاج البراق،

لكنني وللمرة الأولى لم أبدي أي اهتمام بها، فقد كان ذهني منشغلا بمقابلة العمل لا غير، ورددت مرارا آية الكرسي.

وبمجرد أن خطوت الخطوة الأولى داخل المبنى، وقعت عيني على حارس متعجرف مقطب الحاجبين.. كان يرتدي طقما أسود اللون، وذات الأمر ينطبق على شعره ولحيته، أما عيناه فبدت حادتين وكأنهما نصل مصوبتان نحوي.

(يا فتَاح ياعليم!)

كنت أعرف ما إن رأيته أن شيئا ما سيحدث.. كل هذا السواد، وأمام مدخل الشركة !! لا، لم أكن أؤمن بالخرافات حقيقة، لكن منظره ذكرني بالنحس الذي يرافق حياتي منذ مدة، ولحسن الحظ أني تجاهلته فيما أتحدث مع موظفة الاستقبال التي رحبت بي بتودد على خلافه، ووجهتني نحو مجموعة من المصاعد قادتني إلى الطابق العلوي، وما هي إلا لحظات حتى صرت داخل غرفة الانتظار. جلست، ورحت استكشف بفضول المكان الذي سيصبح

مقر عملي.. كانت ثمة أضواء كريستالية في كل مكان، وديكور تغلب عليه اللمسة البوهيمية، وعند أعلى الحائط على يميني مباشرة، صورة كبيرة لها إطار ذهبي تظهر فيها امرأة بفستان أبيض يتدرج لونه حتى يتحول إلى القاتم.

_ مهلا أهذه رسمة؟!

اندفعت نحو الصورة، وألصقت وجهي بها ممررة أناملي عليها، لكن فجأة تناهى إليّ من نهاية الممر صوت باب يفتح تليه أصوات مختلفة، وكعادتي حينما يغلبني الفضول أميل برأسي لأرى ماذا هناك. ثمة اجتماع انتهى للتو وموظفين يعودون تباعا لمكاتبهم، وامرأة شقراء تبدو في أواخر الثلاثينيات..

بعد لحظات، يسير على إثرها رجل طويل القامة نحيل، يرتدي معطفا أسود اللون، لبرهة ظننته زوجها، فقد اندفع صوبها وشبك كتفيها بذراعه، فرفعت وجهها وهيأت شفتيها ثم....

حينما استدار ذلك الرجل وأصبح وجهه مقابلا لي.. لم أصدق عيناي... يعقوب!!

تسمرت في مكاني وأنا أحدق فيه للحظات والدهشة تعتريني، ويبدو أنني فقدت الوعي لأول مرة في حياتي لشدة صدمتي.

حين استعدت وعي ثانية، وجدت السكريتيرة منحنية صوبي والقارورة في يدها، أما هو فقد اختفى تماما.

***

خرجت من هناك لا أكاد أقف على ساقاي.. قادتني خطواتي المتعثرة إلى أقرب موقف، كنت أشعر بغصة في حلقي، وفجوة في قلبي ولا أعرف كيف أصبحت فجأة داخل سيارة أجرة أتأمل الشوارع والطرقات.. نسيم الصباح وهو يتدفق ببطء بين الأشجار.. لون السماء المتدرج بين الأزرق والرمادي.. كل هذه الأشياء باتت تعذبني، الدموع تطفو من عيني بلا توقف.. قلبي ثقيل.. روحي دفنت بالحجارة.. لم أكن أتمنى أن أتحرك.. كنت أدعو من أجل

الموت.. كنت في خراب تام.. تمنيت أن يكون ذلك كذبا.. كل ما رأيته محض كابوس سأصحو منه قريبا.. لكن لا! لم يكن شيء مما رأيته كذلك.. كان هو.. كان يعقوب.. بصحبة امرأة أخرى.. امرأة تبدو أكبر منه بكثير.

الوغد!!

لقد تركني ها هنا أعاني الأمرين بمفردي.. بينما هو في الطرف الآخر يعيش حياته بكاملها ؟!

حزينة جدا...

كان كل شيء يبدو لي ضبابيا وباهتا.. الشوارع والطرقات... لكن هذا لا شيء أمام الثقب الذي خلَفه في قلبي.

– توقف!!

قلت للسائق فجأة ما إن أصبحنا على مقربة من السين، أقرضته أجرته، وسرت بمحاذاة النهر متجاهلة النظرات المتسائلة للمارين

من حولي.. كان لدي إحساس غريب بأن هذا العالم، لا يعقوب فحسب.. بل هذا الكوكب كله لم يعد يريدني.

قاربت الساعة على الواحدة زوالا عندما استعدت السيطرة على نفسي. نهضت على قدمي، وسرت نحو المنزل.. المنزل الذي بإمكانه أن يحتوي حزني و ألمي و..... دموعي.

***

عندما وصلت.. كانت ساعة الغداء توشك على الانتهاء، ولحسن حظي ربما وجدت سوزان هناك.. كانت تتحرك بأريحية وسط المنزل. لبرهة أبهرتني طباعها النزقة و حسدتها على اندفاعها، وعلى تلك الهالة التي نشرتها في هذا المكان الكئيب ما إن أصبحت داخله.

_ قلت أنك ربما ظللت طريقك إلى هنا!

بادرتني ما إن انتبهت لوجودي، فتجاهلت ملاحظتها وألقيت بنفسي على الأريكة وأغمضت عيناي برفق حتى أسمح لأنفاسي ونبضات قلبي بالعودة إلى طبيعتها.

– أكل شيء على ما يرام؟

لم أقل شيئا...

انفجرت باكية في تلك اللحظة.. بكاء أشفق فيه على نفسي.. على حياتي التي كانت تتدهور إلى حد فظيع.. لقد خسرت كل شيء فجأة: عائلتي، زوجي، وحتى أحلامي التي ناضلت من أجلها مرارا.

اقتربت مني سوزان وسألت بحيرة:

_ ولاء ما خطبك! أنت في وضع مزري.

وفي لحظة ما صرخت:

– هذا يكفي، دعيني وشأني الآن اتفقنا!

تراجعت إلى الخلف مذعورة، وارتسمت ملامح من رأى شبحا على وجهها وعينيها.. ثم تكلمت ثانية بلهجة باردة:

_ آسفة! واتجهت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

رحت أجوب البيت وقد استبد بي القلق، واحترت فيما يتوجب علي فعله.. لكنني حاولت أن أضبط مشاعري وأنا أتحدث إليها. طرقت باب غرفتها وقلت:

_ سوزان، لا تغضبي عزيزتي أرجوك، اسمعي أنا آسفة جدا.. لم أقصد إيذاء مشاعرك.. أنا فقط أمر بأوقات عصيبة الآن، ولا أدري كيف صرخت عليك.. آسفة.. أنا حقا آسفة.

وعندما لم أتلقى أي رد منها تركتها وحبست نفسي أنا الأخرى داخل غرفتي.

كان الليل طويلا.. لا أذكر أنني نمت، كنت أترجح بين النوم واليقظة، إلى أن لاح ضوء النهار أخيرا فنهضت..

مشيت بخطوات مترنحة نحو النافذة، ألقيت بنفسي على كرسيها ثم أطلقت تنهيدة عميقة لأتخفف من هذا الحمل داخل صدري. كان هاتفي وحيدا مثلي. التقطه، ورحت أشاهد بأسى فيديو عن أطفال سوريا اللاجئين، وكيف حولتهم الحرب من أسياد في وطنهم إلى عبيد في أوطان أخرى. تأخذني هذه الصور فجأة إلى التفكير بعائلتي، وكيف تحتم عليهم ترك الأراضي السورية لينعموا ببعض الهدوء في لبنان.. عائلتي التي تتألف من أبي صفوان وأمي سُلاف وأخي الأكبر يمان.

أوه!! نسيتُ أن أمي نبذتني كأنني لم أولد فقط لأنني رضيت بيعقوب زوجا فيما رفضته هي.. أبي انصاع لرغبتي أمي.. أما أخي فلم أذكر أنه أحبني يوما.. كان دائما يراني المنافس العنيد له في كل شيء، وليس مجرد أخت هشة قابلة للانكسار في أي لحظة.

وها أنا ذا وحيدة، على الرغم من وجود سوزان إلى جانبي.. سوزان التي لم أتعرف عليها إلا منذ يومين فقط.. بدا من المؤسف أن أخسرها هي الأخرى.

ترى أين هي الآن؟!

أضع الهاتف على المنضدة، وأرغم نفسي على الوقوف. أسير مترنحة باتجاه المطبخ، فأجدها هناك هادئة ورزينة مثلما يتوجب لنسمة الصباح أن تكون.

حضرت سوزان القهوة، واستمعت كثيرا بالحديث معها في المطبخ.. يا لها من فتاة رائعة! (فكرت) لقد تصرفت معها بلؤم، مع هذا تصر على معاملتي بلطف مبالغ فيه، كأنني عندما فتحت لها أبواب بيتي فتحت لها أبواب الجنة.

بعد الإفطار اقترحتْ أن نذهب في نزهة قصيرة فوافقتها على ذلك، لاسيما أنني لا أريد البقاء وحيدة هنا.. أبكي خائنا لا يستحق ذرة من دموعي.

في الخارج، كانت السماء ساطعة، والهواء حريريا. مررنا بكل المكتبات على ضفاف السين، ثم بمكتب عقاري لتوثيق عقد الإيجار، ومن هناك لديزني لاند.. حيث التقطت صورا لا تعد ولا تحصى مع شخصيات ديزني.

كانت لحظات رائعة أمضيناها بين اللهو والمرح، غير أن مزاجي تكدر على حين غرة، فرحت أستعجل سوزان العودة إلى المنزل وأجيبها بعبارات جافة وخالية من التهذيب أيضا، فانتبهت لتقلبي المفاجئ وتحاشت الحديث معيّ ثانية. أحسست بأنها اتخذت هذا القرار ليس لأنها لا تكترث، بل لأنها تتجنب العاصفة التي تعقب سؤالها.

في الأخير عدنا إلى المنزل..

وضبت سوزان غرفتها، وجلست بهدوء أمام اللاب توب واتصلت بشخص ما، وما هي إلا لحظات حتى انبعث صوت أنثوي هادئ يبدو وكأنه نابع من الجنة.. هتفت: ماما! ثم راحت تقصَ عليها

أحداث يومها بالتفصيل الممل. تسمعتُ على محادثتها لبرهة، لكن سرعان ما فقدت تركيزي ورحت أفكر في إيجاد حل ما لمعضلتي.. ماذا علي أن أفعل؟! لقد هُجرت رسميا من طرف زوجي العزيز.. تركني وحيدة ها هنا مع طفل ينمو في أحشائي.. طفل أدرك مبكرا جدا أنه سيولد في هذه الحياة دون أب فأختار عدم المجيء بالأساس.. كانت الحقيقة واضحة كالشمس، لكنني اخترت تجاهلها.. أما الآن، فما عادت عندي طاقة على الاحتمال أكثر من ذلك، ولن أكون أبدا تلك المرأة التي مزقها الهجران.. ربما قلبي ليس مستعدا لتركك يا يعقوب أما عقلي فبلى.... انتهى كل شيء.

الحب مخادع.. أحيانا تشعرين بأنه قوة لا يمكن إنكارها، وأحيانا يكون متحولا وقابلا للتشكيك.. أقل ما يقال عنه أنه معقد، لكن المهم هو كيفية قبولك للحب..

العمة جوزفين _ فيلم Anne with an E

في مقهى على ناصية شارع باريسي، وبينما كان الراديو يبث أغنية فرنسية من كلاسيكيات القرن الماضي:

" c'était le temps des fleurs on ignorer la peur, les lendemains avaient un goût de miel.."

سرحت وقد نسيت كوب القهوة في يدي، كنت أتذكر بأسى ذلك اليوم الذي ضبطه فيه بالجرم المشهود.. لا يزال يقبع في خيالي وجهه الأسمر بتقاسيمه الدقيقة، وعيناه التي تشبه عينا صياد وهو يتطلع إليها.

لكن لا مشكلة يا يعقوب.. في هذه الصبيحة الباردة من شهر آذار سأكتب بنفسي خاتمة قصة بنيت على الخداع منذ بدايتها، ولست آسفة على ذلك.

_ ولاء.

كان العم خليل الذي اتصلت به منذ سويعات يقف أمامي الآن بكل هيبته ووقاره. كان رجلا خمسينيا طيب القلب عرّفني عليه والدي ذات يوم، وطلب مني قبل أن أستقل طائرتي لفرنسا أن أتصل به إن احتجت لأي مساعدة. أبي العزيز! ربما كان يعلم بأن هذا سيحدث لي مسبقا.

قلت بفرح مناقض لما هو في داخلي:

_ أجل! ولاء بشحمها ولحمها.

غمغم بكلمات قصيرة للاعتذار عن تأخره، ثم جلس على الكرسي المواجه لي دون أن يتفوه بأي كلمة إضافية. كان العم خليل الصديق المقرب لوالدي منذ سنوات، حتى عندما هاجر لفرنسا ظلت علاقتهما وطيدة رغم ذلك، وعندما حللت أنا بباريس ساعدني كثيرا في التأقلم مع أسلوب الحياة هنا، بيدا أنه في هذه اللحظات بدا شاحب الوجه وكأن سنة من النوم قد جافته. هل أخطأت الاتصال به يا ترى؟! (تساءلت مضطربة).

_ إذن (بادر بالقول) كيف هي أحوالك، وأحوال زوجك؟

زوجي!! رحت أمرر أصابعي المرتجفة على حافة كوب القهوة دون أن أتفوه بأي كلمة. ربما لن يصبح لي زوج بعد الآن.. كم من المخجل أن أخبره بشيء كهذا. زوجي العزيز يخونني مع أخرى، وأي أخرى!! امرأة فرنسية تبدو أكبر منه بكثير.. يا لا السخرية!

تابع وهو يسعل:

– لكن ما الأمر الذي أردت أن تحدثينني فيه؟

نزل هذا السؤال كضربة فأس على رأسي، وعوض أن أجيبه بكل صدق رحت أماطل في الإجابة:

– إنهم يقدمون قهوة لذيذة هنا، أتود تذوقها؟!

حملق في وجهي مليا، كأنه يحاول صبر أغواري، ثم دمدم قائلا:

– لا أتصور أنك اتصلت بي لأتذوق الـ...

وقبل أن ينهي جملته داهمته نوبة السعال ثانية:

– عمو خليل هل أنت بخير؟

تجرع كوبا كاملا من الماء البارد ثم قال:

– بخير... بخير... لم تجيبيني بعد.

شعرت فجأة أنني حشرت في الزاوية، وما عدت قادرة على اللف والدوران أكثر من ذلك، فتمتمت بحزن:

– آنا آسفة.. آسفة جدا.. كل ما في الأمر أنني أردت التحدث مع شخص ما، ولم أجد من هو أكفأ منك لأداء هذه المهمة. ثم راحت مقلتاي تبرقان بدموع حارة لم استطع إخفائها طويلا، وها هي تنهمر كالطوفان....

– لكن ما لذي دهاك يا بنتي، ما كل هذه الدموع، هل هناك ما لا أعرفه؟!

– لا!

– بلى، اخبريني ماذا هناك؟

مسحت دموعي. أخذت نفسا عميقا. ثم قلت برباطة جأش دون أن أنظر إليه تماما:

– في الحقيقة هناك الكثير من الأمور التي سكتُ عنها طويلا.. كان يصعب علي قولها، كنت أخجل أن أخبرك بها، وربما ظننتها شكليات غير مهمة، والآن أعرف أنني أخطأت.. أخطأت كثيرا، وما كان يجب أن أسكت عليها طيلة هذا الوقت.

ورحت أقص عليه بالتفصيل الممل كل ما حدث معي بداية من مغادرة يعقوب المنزل، إلى غاية عثوري عليه رفقة تلك المرأة.

– هذا الوغد تركك وحيدة في باريس وأنت حامل من أجل فرنسية!! السافل..

ولم يقل أي شيء آخر، بدا مضطربا، يتلفظ بكلمات نابية بين الحين والآخر، وكان من الواضح أن هذا الخبر زاده ألما على ألمه، فقد فتح ياقة قميصه وراح يستجدي الهواء بصعوبة.

_ هل عائلتك تعلم بالأمر؟

هتفت فزعة:

_ لا.. لا..

– أتصور أنك لن تخبريهم بذلك.

– أجل.

قال وهو يسعل مرة أخرى:

– ولاء يا بنتي ستضعينني في موقف صعب مع والدك.

هذه المرة بذلت جهدا حتى أشرح له وجهة نظري:

– أدري ذلك، لكن أيها العم أنت لا تعرف طباع أخي يمان، سيقلب باريس على رأسي إن علم بالأمر.

قام بحركة من يده ليعبر عن استخفافه بالأمر، فقلت متوسلة:

_ أرجوك..

أخذ العم خليل نفسا عميقا، كما لو أنه تخلص من عبء ثقيل يضغط على صدره وقال:

_ لن تبقي على عصمته دقيقة واحدة إضافية، ستطلبين الطلاق وسأتكفل بالباقي.

قلت بارتباك:

_ ماذا عن الشقة التي سجلتها باسمه هنا، إنه قادر على رمي في الشارع في أية لحظة إن فعلت ذلك.

كتف العم خليل ذراعيه فوق صدره، وقال معاتبا:

_ هل رأيت ما لذي فعلته بنفسك يا بنتي، ألم يكن جديرا بك أن ترفضي الزواج منه منذ البداية... هل رأيت ... هل رأيت؟!

ثم أضاف ليطمئنني:

_ لكن لا تقلقي، أعدك أنني سأسلب منه كل شيء دفعة واحدة.

في اليوم الموالي ذهبت إلى شركة العم خليل.. أين يرأس مبنًا كاملا من المحامين كل حسب وظيفته والمهام التي أوكلت إليه من الجهات الوصية.. فهم هنا إما لحل قضايا شائكة كالجنايات والسرقة والمتاجرة بالمخدرات، وربما للدفاع عمن هم مثلي وعتقهن من أزواج خونة مثل يعقوب.

تململت في جلستي، ورحت أتابع بأسى حركة الموظفين في الشركة. مضت نصف ساعة منذ قدمت إلى هنا، لكن لا أثر للعم خليل. (لم يأتي بعد!) تقول سكريترته الفرنسية وتنكب ساخطة على أوراقها من جديد.. بعد لحظات يقتحم شاب ثلاثيني قاعة

الانتظار.. يحيّ السكريتيرة باقتضاب ثم يهمس في أذنها شيئا ما فتومئ برأسها موافقة.. وهاهو ذا يتحرك صوبي:

_ آنسة ولاء!!

جفلت، وغزا الذعر كياني.. حتى اللامبالاة التي ادعيتها وأنا أجلس هناك ذابت فجأة. كان ذلك الشاب يحمل لي أخبارا سيئة.. أخبارا تخص العم خليل الذي يرقد في المشفى منذ البارحة.

هتفت بجزع:

– لكن كيف حاله الآن و...!!

قاطعني الشاب بنبرة ملؤها الدفء:

_ اهدئي.. اهدئي.. لا داعي للقلق، هو على خير ما يرام الآن.

كان من المفترض أن يكون كلامه مطمئنا لي، لكنني لسبب ما وجدت نفسي أبكي بحرقة.. بدأت الدموع الدافئة تنساب على خدي بدون توقف، فكل ما تبادر لذهني في تلك اللحظة هو أن يموت

العم خليل ويتركني أواجه هذا العالم وحيدة.. أجل هذا صحيح.. إنني خائفة جدا، وآمل أن يشفى بأقصى سرعة.

جلس الشاب الذي لم أعرف هويته بعد إلى جانبي وهمس بصوت أنعم من المخمل:

_ لا أعرف صلة القرابة بينك وبين السيد خليل، لكن يبدو أن حضرتك تحتلين مكانة مميزة عنده.

_ إنه صديق والدي. (قلت بخفوت)

_ حسنا، لقد طلب صديق والدك أن يراك الآن.

وأردف قائلا:

– أوه! لكن أرجوك هو لا يجب أن يراك على هذه الحال.

مسحت دموعي بباطن يدي فتكرم عليّ الشاب بمنديل ورقي وهو يهرطق بفرنسية مرحة نوعا ما (هذه أفضل!).. فرفعت عيناي إليه في تلك اللحظة ولسبب ما أخفضتهما فورا.

_ بالمناسبة أنا عماد محامي السيد خليل (هكذا عرّف عن نفسه).

لم تكن تلك أول مرة أصاب فيها بالارتباك أمام شخص لا أعرفه، لكن أمام عماد ورغم ارتباكي فقد رأيت في عينيه ما يدعو للاطمئنان والسكينة.. لم أصارحه بذلك حقيقة، حتى عندما أصعدني في سيارته المرسيدس من دون أن ينبس بأي كلمة إضافية لم أجرؤ على ذلك.. فضلت أنا الأخرى الصمت مع أنني رغبت مرارا في أن أسأله من أي بلاد هو.. كان عماد رجلا أنيقا وهادئا وذو ملامح عربية بحته.. أحببت طريقته في التحدث، وبقدرته على الثرثرة والصمت في آن واحد.. لم يكن شابا غامضا مثل يعقوب، ولا شرسا مثل أخي يمان، بل كان واضحا جدا، مثلي ومثل سوزان تقريبا.. أدهشني التشابه بينهما رغم أنني لا أعرف إن كان هذا التشابه حقيقيا أم أنا أتخيل ذلك فقط.. كان يضع نظارة شمسية، وشعره الأسود يتحرك بفوضوية مع نسمات الهواء، رياضي الجسم بشكل ملحوظ، ويداه تتعرقان. أوصلني حتى باب غرفة العم خليل في المشفى ثم نداني أخيرا:

– آنسة ولاء.

توقفت احتراما له، وأنصت لما قاله من بعيد:

– أرجوك لا تطيلي المكوث عنده حتى لا ينفعل.

_ حسنا.

دخلت لغرفة رحبة يتوسطها سرير وكرسي ومنضدة صغيرة.. كنت أمسك بمقبض الباب بشكل متردد، غير واثقة من قدرتي على حبس دموعي ما إن أرى العم خليل في تلك الحالة.

_ بنيتي!

انتشلني صوته من هواجسي، وأعادني للّحظة الراهنة حيث يجب أن أكابر حتى أخفي هشاشتي أمامه.. اندفعت نحوه ومن دون سابق إنذار عانقته باكية.

_ لهْ! لهْ! يا ولاء لا تبكي بنيتي.

_ هل أنت بخير؟ هل تشعر بألم ما؟ ماذا قال الطبيب؟ هل زال الخطر؟

هكذا أمطرته بوابل من الأسئلة. كان حريا به أن يصمت، لكنه راح يجيب على أسئلتي واحدة تلو الأخرى برحابة صدر، وقال بأنه سيباشر في معاملة الطلاق منذ الغد، فرفضت ذلك بإصرار وأشرت إلى أنه يجب أن يهتم بصحته أولا، وأن لا يهملها أبدا.

_ حسنا.. طبعا.. لك ذلك.

عرفت لاحقا أنه قال لي هذا فقط ليهدأ من روعي، لأن أوراق الطلاق كانت فوق مكتبه بالفعل في اليوم الموالي.. طلب مني أن أوقع عليها، وأن استعد لأسوء الاحتمالات مادمنا لا نعرف ردة فعل الطرف الآخر من هذه القضية... وها أنا أوقع! عندما غادرت مكتبه ذلك الصباح، سلكت مباشرة طريق الشركة التي شهدت فيها على خيانة يعقوب، كنت آمل أن ألتقيه هناك.. كنت أتخيل أن أفاجئه مع عشيقته فيبهتْ، لكن كل قواي خارت

عندما رأيتهما معا من جديد. كانت تلك الشقراء تشدّ نفسها إلى زوجي، وكان هو مسرورا بحركاتها المقززة تلك. تمنيت فجأة لو كان بيدي مسدسا لأفجر رأسيهما معا، لكن لما علي أن أفعل ذلك؟! ففي النهاية قد أنقذاني من أن أهدر سنوات كثيرة من عمري وأنا أنتظر شخصا ضيعني دون تردد. هه! كم كنت ساذجة عندما صدقت للحظة أنك ستسافر من أجل العمل. هكذا قلت لي يومها.. مازالت ذاكرتي تحتفظ بذلك الحوار القصير بيننا:

_ هل ستتركني بمفردي؟

_ تحملي لبعض الوقت، أقسم أن الأمر برمته لن يستغرق وقتا طويلا.. أسبوع أو أثنين على أقصى تقدير.. سيكون هذا الوقت كافيا بالنسبة لي لأجد عملا!!

ثم رحلت..

مرت الأيام والأسابيع ثم الشهور وأنا أنتظر.. اتصلت بك مرارا ليرد المجيب الآلي ويخبرني أنك لست في الخدمة. هل كان هذا

عقابي لأنني أحببتك، لأنني في لحظة ما عصيت أمر أمي وتزوجتك؟ ماذا سأقول لعائلتي بعد الآن؟ كيف سأخبرهم أننا انتهينا.. أنك أنت من أنهى الأمر ومن دون أن تسألني حتى.. كيف سأخبر أبي أنه ما عاد بإمكانه أن يتصل بك.. كيف سأخبر أمي أنها كانت على حق، وأنك لن تكون أبدا في مستوى تطلعاتها، وأخي!! كيف سأخبر أخي بمثل هذا الأمر.. سيقتلني حتما من دون أن يرف له جفن.

رحت أتمتم لنفسي: « لا بأس سيمضي.. كل هذا سيمضي يا ولاء..»

غير أن دموعي خانتني على حين غرة، ورحت أبكي وأبكي حتى تحولت أنظار كل من في الشركة إليّ، فغادرت المكان قبل أن ينتبه يعقوب لوجودي هناك.

خرجت...

وتهت في ضجيج الشوارع.. وجها بلا هوية وسط زحام باريسي

خانق، تمنيت في تلك اللحظة لو أني أبكي شيئا أعمق من دموعي.. شيئا يحررني من هذا الحزن الذي تكدس على مرّ الأيام في قلبي، فإذ بي أسمع صوتا من بعيد للآذان، وهكذا كأن شيئا دفعني إلى هناك وجدت نفسي أصلي في الجامع الكبير. عندما فرغت من الصلاة شعرت بالسكينة وهي تغزو كياني المضطرب.. سكينة لم أشعر بها من قبل وأنا أخوض حروبي الداخلية بصمت، وها أنا كأنني ولدت من جديد أعود أدراجي إلى المنزل.. ملأت الحوض الصغير بالمياه.. كانت تتدفق دافئة من الصنبور. نزعت ثيابي عني وغصت حتى عنقي.

حين انتهيت، لبست فستانا منزليا على بساطته يحدد قوام جسمي النحيل ويظهره أكثر شبابا، زدت عليه بعض لمسات الزينة على وجهي وذهبت للمطبخ.. أشعلت نار الغاز ووضعت قدرا لأحضر غداءً متأخرا نوعا ما.. كنت آمل في قرارة نفسي أنني بهذه الطريقة سأنسى يعقوب نهائيا.

صوت صرير الباب وهو يفتح جعلني ألتفت برأسي لأرى من هناك، فألفيتُ سوزان عند الباب تخلع وشاحها ومعطفها الكاشميري وتضعهما على الكرسي.

_ مرحبا بكِ (قلت).

ردت بحبور:

_ مرحبا ولاء..

وتابعت:

_ مممم أشم رائحة زكية هنا!!

(ضحكت)

_ اجلسي، سيكون الطعام جاهزا بعد قليل.

ظهرت على وجهها ابتسامة تساؤل:

_ تبدين جميلة اليوم.

ابتسمت وأومأت لها بشكل مبهم، وبقيت صامتة ما يقارب دقيقة.. إذ ما لذي سأقوله لها مثلا! هل أخبرها بأنها مجرد محاولة يائسة لأخفي تعاستي، أم أكتفي بالصمت كعادتي؟!

وفي محاولة مني لتغيير مجرى الحديث سألتها:

_ ما لجديد؟ هل عثرت على وظيفة ما؟

نظرت إليّ للحظة بشفتين مزمومتين كأنها تستنطقني، ثم مضت باتجاه البراد وتناولت قارورة ماء.

_ لا (قالت) ليس بعد.

وأردفت:

_ لدي مواعيد أخرى يوم الغد.

***

حينما استيقظت في صباح اليوم الموالي، داهمني شعور باليأس الشديد، مع ذلك نهضت وغسلت وجهي بالصابون بقسوة، سرحت شعري وتركته منسدلا، ثم رحت أنادي على سوزان التي نسيت على الأرجح مواعيدها لنهار اليوم.

_ يا كسولة انهضي ستتأخرين.

لكنها لا تجيبني، وبينما هي نائمة ملأ جفنيها خطرت لي فكرة.. حملت هاتفي وشكلت رقمها ثم ضغطت على زر الاتصال، وفي الردهة استمعت إلى هاتفها وهو يرن ويرن دون أن تكلف نفسها عناء الإجابة عليه. بعد برهة طلت عليّ مثل برج ملوحة بالهاتف، كانت جفناها منتفختان، وشعرها مبعثر في كل الاتجاهات.

_ بالله عليك يا ولاء (تقول) لما أيقظتني؟

أجبتها :

_ ألم تقولي أن لديك مواعيد عمل يا فتاة؟

فجأة دبت الحياة فيها من جديد وأخذت تعدو في جميع الاتجاهات:

_ يا للهول لقد طال نومي كثيرا.

أجبتها مازحة:

_ لا بأس اشكريني لاحقا.

حضرت طعام فطورنا: فنجان قهوة بالحليب، توست محمص، فطائر محلات بالعسل، بيض مسلوق، وجلست على الطاولة أرتشف قهوتي الساخنة في انتظار انضمام سوزان إليّ، لكنها ما إن جهزت نفسها حتى قفزت إلى الخارج مباشرة.

_ والفطور!

_ آسفة ولاء لقد تأخرت علي الذهاب.

AM 8:30

وضبت الطاولة، غسلت الأواني، ثم لبست معطفي وخرجت.

كنت أتجول بلا هدف في أزقة الحي اللاتيني عندما تذكرت فجأة العم خليل، كان من المفترض أن أتصل به لأستفسر عن مجريات القضية، لكنني انشغلت بالتافهات كعادتي. التقط هاتفي ورحت أحاول الاتصال به... مرة... اثنتان... ثلاثة... دون جدوى. لابد أن لديه جلسة في المحكمة، لكن لا بأس عندما يرى مكالمتي سيعاود الاتصال بي لاحقا.

هكذا طمأنت نفسي..

كنت أعرف أنني مذنبة في حقه، ولا يمكن لأي مبرر كان أن يغطي قلة اهتمامي بمرضه، فقد كان العم خليل شديد الطيبة معي، وغالبا ما هب لمساعدتي كلما أردت ذلك منه، لذلك سأتوارى عن الأنظار وأريحه مني لفترة.

AM 12:00

بعد وجبة غداء دسمة في إحدى المطاعم الشرقية عدت إلى شقتي وقد نال مني التعب.. كان الجو مكفهرا في الخارج، ولا أدري متى

ستشرق شمس الربيع هنا. نزعت معطفي المضاد للمطر ورحت أنفضه بقسوة.. كانت ساقاي متجمدتين ومرتعشتين، وكدت أن أتهاوى من فرط البرد القارص، لكني استعدت القليل من توازني ما إن أشعلت الصوبيا.

فجأة أدركت بعد فوات الأوان وجود شخص ما في المنزل.. شخص كنت أعرف من هو جيدا حتى قبل أن أرفع عيني نحوه، أحسست بحضوره وسمعت خطواته.

ها هو بعد أيام..

بعد شهور..

بعد دهر من الانتظار..

يعود مجددا..

كدت أنسى هذه الملامح ، فذلك الرجل الذي اعتدت على ابتسامته ومزاجه الطفولي المرح، رحل ليحل محله هذا الوجه العابس الذي

لا يبشر بالخير. كنت متوترة وعلى وشك الانهيار.. ما لذي يريده مني؟ لماذا أتى الآن؟ و لأول مرة وجدت نفسي أتراجع إلى الخلف منكمشة، فيما كان هو يقترب مني شيئا فشيئا بخطوات ثابتة. كان هناك شيء ما في تقاطيعه لم أفهمه، جعلني أفكر بالهرب إلى غرفتي وأوصد الباب من خلفي بإحكام.

_ ماذا دهاك؟ هل وجهي مفاجأة؟ وهل توهمت أنني لن أعود ثانية؟

هكذا قال وهو يصر على أسنانه.. بدا كوحش كاسر يتهيأ للانقضاض على فريسته، ثم وفي لمح البصر أمسك بذراعي وجرني، فصرخت مستنجدة غاضبة:

_ دعني وشأني، ما لذي تريده مني الآن؟

أجاب صائحا، وهو يدفعني بقوة نحو الجدار ملوحا بورقة ما:

_ ما لذي أريده ها!! أيتها الغبية الحمقاء.. هل تجرأت حقا على رفع دعوة علي؟

عند ذلك فقط فهمت سبب عودته.. شعرت بالخوف، وبقبضته القوية وهي تحيط برقبتي.. لم يترك لي مجالا للتنفس، فرحت ألهث طالبة للهواء. أفلتني فجأة وصفع وجهي بظاهر يده.. كانت الصفعة قوية جعلتني أفقد توازني وأتهاوى على الأرض، ثم أنهال عليا ضربا ورفسا.. لم يكن هناك أحد لينقضني منه.. لم يكن هناك غيري.... سوزان! أين هي سوزان الآن؟ لماذا لا تأتي وتنقضني من براثن هذا الوحش.. تسلل اليأس إلى قلبي فجأة، وراح صوتي ينقطع شيئا فشيئا حتى صار همسا، ومع كل ضربة أتلقاها أشعر بأني أتدحرج إلى هوة عميقة.. ثم فجأة توقفت الضربات وساد الصمت. سمعت الباب ينفتح وينغلق بعنف مصدرا ضجة، وصوت أنثوي يهتف بحدة:

_ يا إلهي، ولاء !

اجتاح الصوت المشهد، وبث في داخلي شيئا من الطمأنينة التي افتقدتها منذ لحظات، ها هي ذي تهزني بلطف وتنادي على اسمي:

_ ولاء!! استيقظي يا ولاء !! أرجوك ردي علي.

آه ليتني أستطيع ذلك.. ليتني أستيقظ.. كان كل شيء يتحرك من حولي جيئة وذهابا.. إنني أموت.. أنني أموت من دون شك.

عاد الصوت حادا أكثر من ذي قبل:

_ لن تموتي يا ولاء، كفي عن الهذيان.. استفيقي أرجوك.

سمعت وقع أقدام تأتي وتروح داخل الصالون.. ابتعدت، ثم اقتربت من جديد. شعرت بباطن يدها على أنفي، يدها الناعمة مخضبة برائحة مألوفة تشبه رائحة الكولونيا.. استنشقتها بعمق وكأني أستنشق رحيق الجنة.. بعد لحظات استعدت وعي.

AM 12:45

صفا ذهني، عاد كل شيء لمخيلتي الآن.. شعرت أنني أنهار من جديد، بداية من أبعد نقطة في جسدي إلى أقرب نقطة منه.. ثم أجهشت بالبكاء.. بكيت طويلا..على أشياء ربما لم أستطع أن أبكيها من قبل.. على عائلتي.. أمي وأبي.. وطني .. حياتي في الشام، وكل الأصدقاء الذين تركتهم هناك.. بكيت الخيانة والحب اليائس الضائع.. كنت شبه مخدرة ومتكورة على نفسي.. كان علي أن أعتاد على وضعي الجديد.. سجينة هنا في بلاد لا أعرف فيها أحد. سجن! كان سجني هذا مكانا يجردني من الأحاسيس، لكن هل هذا أسوء ما في الأمر؟! شعرت أن عينا سوزان تختر قانني في العتمة.. فهمت من نظراتها أنها تريد تفسيرا لما حدث، لكني كنت عاجزة عن تقديمه لها.. عاجزة عن صياغة جملة مفيدة. تركت دموعي تنساب ولم تقاطعني كانت تراقبني بصمت، ثم بعد برهة اقتربت مني وجثت بالقرب من الفراش الذي كنت مستلقية عليه. وضعت إحدى يديها على خدي، ومسحت دموعي بأطراف أناملها وهمست:

_ سأكون هنا لسماعك متى أردت ذلك، اطمئني لن أسمح لأحد بأذيتك بعد الآن.

نظرت إليها مندهشة.. لكن هل هذا ما كنت أتوقعه منها حقا.. أن تتضامن معي؟! يا لك من حمقاء!! لقد كذبت عليك مرارا.. أخفيت عنك أمور عدة .. بداية من زوجي يعقوب وقص على ذلك.. كنت أكذب عليك في كل كلمة أقولها.. لم أصدقك القول يوما، بل كنت أحيانا أغار منك.. من حيويتك المفرطة.. من جمالك.. ومرحك الطفولي.. ليس هذا فحسب بل تمنيت لو كنت أنت، أو على الأقل في مثل مواصفاتك ..

لم أقل لها كل هذا، فضلت الصمت على أن أصدمها بكل هذه الأفكار التي تجول في رأسي على نحو أخرق، وحتى أتجنب نظراتها المحدقة رحت أنظر عبر النافذة إلى الخارج.. إلى السماء المكفهرة، وإلى سرب من الطيور المهاجرة، والأفق الضبابي. نهضت سوزان وانسلت إلى الخارج، ثم عادت بعد برهة حاملة في

يدها كأس ماء ومعه حبة مسكن.. شعرت بالذنب بسبب كل ما تفعله من أجلي، وبغصة تعترض حلقي. وفجأة، صرت شجاعة.. انتظمت نبضات قلبي واسترخت أنفاسي، تنهدت ورحت أبوح بكل شيء:

_ ألم يسبق لك وأن تساءلت من تكون هذه الفتاة التي أعيش معها تحت سقف واحد؟! ألم يسبق وقلت في نفسك لما أبدو مرتبكة كلما سألتني عن شيء يخصني؟! أنا يا سوزان عانيت كثيرا، فقط لأنني اخترت أن أعيش الأفضل.

تأملتها عن كثب لأرى مفعول كلماتي عليها، فوجدتها فاغرة الفم.. كانت عينيها متسعتين. استنشقت نفسا عميقا، وتابعت كلامي عبر دموعي المتساقطة:

_ بدأت قصتي عندما نلت البكالوريا في سوريا، صرت أحلم بالسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. ليس هذا فقط بل كانت بعض أحلامي أكثر عمقا.

كان لدي صديقة في سوريا، تزوجت من صديق طفولتها وهاجرا معا لأمريكا، وبعد مرور سنتين عادت وفي يدها طفل صغير يشبه الملاك، أما زوجها فقد ارتقى في عمله هناك وأصبح أستاذا جامعيا. كنت أشعر بالغيرة منها حتى أني في بعض الأحيان كرهتها بشدة، إذ تولد لدي إحساس بأنها سلبتني الحياة التي كان ينبغي لي أن أعيشها. أمي أيضاً قالت لي بأنني أنا من تستحق تلك الحياة لا هي، لذلك أقنعتْ والدي بأن يسمح لي بالدراسة في الخارج. وافق أبي على ذلك لكنه طلب مني أولا أن أتحصل على شهادة الليسانس ليسمح لي بالسفر، وبالفعل تخرجت من جامعة دمشق بدرجة ممتاز، في تخصص أدرك أنني لن أجني منه الكثير في بلد لا يدعم الخبرات.. لكني درسته على أي حال منساقة خلف الصور الزائفة للمجد.

بعدها حصلت على منحة إلى أمريكا لأتم دراستي هناك، لكن فرحتي لم تكتمل، إذ بمجرد أن نلت شهادة الماجستير وسويت وضعيتي كاملة في الولايات المتحدة، عدت للأراضي السورية

مجبرة حينما رفض أخي أن أتابع دراستي هناك، قال لي بالحرف الواحد: (إن النساء لا يسافرن دون رجل، ولأنني أنثى مكاني هو المطبخ أغسل فيه الأواني المنزلية..) ظننتني أحلم! فها أنا مجددا أصطدم بجدار فولاذي اسمه العائلة.

عانيت بعدها من اكتئاب حاد عزلني عن شغف حياتي الوحيد الذي رفعته، وجعلني حبيسة جدران غرفتي أرفض الخروج ورؤية العالم، لا أرى أحد ولا يراني أحد. لفترة طويلة كنت أحسب أنني غالبا أشبه الماء المتدفق بغزارة كلما سد عليه منفذ، انسابُ من آخر بكل سلاسة، لكن في تلك اللحظات خُيل إليَ أنني أشبه بجذع هش تلهو به الرياح كيفما تشاء.

ثم جاء ذلك اليوم. ذلك قبل نشوب الثورة بكثير، وربما ليس بالكثير كما اعتقد. وقتها جاء يعقوب لخطبتي، كان يعقوب رجلا وسيما.. طويل القامة، مكتنز العضلات، وكحلي الشعر، وكان ذو وجه أسمر بلون الكراميل.

أخبرني بأنه سيقف إلى جانبي، وبأنه لن يسمح لأحد بأن يتحكم بي بعد الآن.

صدقته!! وعلقت عليه جل أمالي.. قلت لنفسي افرحي يا فتاة!! ها قد جاء من ينتشلك من هذا الجحيم الذي تعيشين فيه، ورغم معارضة أمي لهذا الزواج وافقت عليه، مأخوذة باعتقادي بأنهم كانوا السبب في كل ما يحدث معي، ولا يحق لهم التدخل في شؤوني بعد الآن. الوحيد الذي لم يعترض على هذا الزواج هو أخي يمان، لأنه بشكل ما كان سيتخلص من هم ثقيل على قلبه، وبعد رحيلي سيصفى له الجو ليصبح الوارث الوحيد لممتلكات أبي.

وتزوجنا! كانت الشهور الأولى من أروع الأيام التي عشتها معه، ثم جئنا إلى هنا بناء على توصية من والدي و معارفه الرفيعة في باريس. اشترى والدي لي هذه الشقة. كان حريصا دائما أن

أكون مرتاحة من جميع النواحي، ولثقتي العمياء بيعقوب قررت أن أسجلها باسمه، فلم يعترض بل بدا في غاية السعادة وقتها.

هه، كم كنت غبية!

نظرت إلى البعيد من خلال زجاج النافذة، ثم أكملت:

مر الوقت سريعا.. في لمح البصر ربما! وها أنا أحمل بطفلي الأول، الطفل الذي لم يتسنى لي رؤيته مطلقا، فبمجرد أن بلغت الشهر الثالث شعرت بأوجاع حادة تلاها نزيف.. بعدها خسرت الطفل.. خسرته في غياب يعقوب! الذي رحل بحجة البحث عن عمل.. تركني ها هنا أعاني الأمرين: الوحدة والإجهاض.. رغم أنني أخبرته مرارا أننا نملك من المال ما يكفينا لوقت طويل، لكنه أصر على البحث عن وظيفة في ضواحي فرنسا. كنت ساذجة ففكرت أنه يرفض أن يعيش تحت نفقة والدي، فلم أعترض طريقه وتركته يذهب، لكنه لم يعد من يومها.

في تلك الفترة تذبذبت علاقتي بعائلتي، وبعد الثورة انقطعت أخبارهم عني لفترة طويلة.. خشيت أنهم ماتوا تحت الأنقاض، أو ربما قتلوا في غارة إرهابية.. وربما وربما... كانت الأفكار تتقاضفني جيئة وذهابا، ولم أستطع النوم لليالي عدة. لكن أتعرفين يا سوزان أسوء ما في الأمر؟! هو أن تُلقى على عاتقك لائمة كل ما حدث.. حتى الثورة ووطأة أوزارها.. أن تشعري فجأة أنك خيبت ظنهم لمجرد أنك اخترت أن تكوني أنت لا كما يريدون لك.

عندما تمكنت من الاتصال بأقاربي في الشام، أخبروني بأن الطائرات قصفت منزل عائلتي بمحافظة إدلب. هالني الخبر ورحت أتخيل المعاناة التي قاسوها هناك، وحياتهم في المخيمات والملاجئ، لكنني أدركت فيما بعد كم أسرفت في خوفي، فأخي الأكبر «يمان» استطاع أن يهربهما خارج البلاد، فقلت في نفسي: سيئا كان ذلك أم جيدا.. لا يهم ! المهم أن عائلتي بخير وبصحة وعافية.

فيما بعد تمكنت من الاتصال بهم، وكانت أمي من رفعت السماعة. قالت لي ممزقة الصوت، غاضبة ومتألمة في آن:

_ ماذا تريدين؟ ألم تتزوجي بذلك المعتوه؟! انسي أمرنا إذا.. لست ابنتي بعد اليوم، كما أن والدك لا يرغب في سماع صوتك ولا شقيقك أيضا.

وأغلقت الخط في وجهي.. شعرت في تلك اللحظة بحجم الخيبة التي سببتها لها، بحجم المأساة التي عايشتها في غيابي، فلم أعتب عليها.. ألست أنا ابنتها الوحيدة ؟! ألست من خيب ظنها بزواجي من يعقوب ؟! حسنا إذا فلأتحمل النتائج. لاشك أن جميعنا يقترف أخطاءً فادحة في بعض الأحيان، لكن زواجي كسرها بما لا يطاق، ما عادت تريد حتى أن تسمع صوتي، ولا ألومها على ذلك، فها قد حدث ما كانت تخشاه، تركني يعقوب في أول الطريق دون أن ينظر للوراء. ما عدت أذكر وكل الجروح التي سببها لي كيف تزوجت سافلا انتهازيا مثله..

مرت لحظة صمت.. بقيت سوزان خلالها تطالعني بتأثر، ثم وبشيء من التردد سألت:

_ أنا لم أفهم، لماذا تركك زوجك إذا بما أنه لم يذهب من أجل العمل ؟

قلت:

_ العمل كان مجرد حجة ليغطي حماقاته.. لقد كان يخونني مع امرأة فرنسية، وليضمن أنها لن تتخلى عنه على حين غرة ولا يجد مأوى يذهب إليه كذب علي أنا وتحجج بالعمل ليعود متى أراد، لكني اكتشفت خيانته لي على حين غرة، وما عاد بإمكانه أن يخدعني بعد الآن.

سألتني مجددا:

_ وكيف اكتشفت ذلك؟

_ اكتشفت ذلك منذ مدة.. رأيته في الشركة التي كان من المفترض أن أعمل فيها، مع امرأة فرنسية تبدو في أواخر الثلاثينات.. كان من الواضح أنها من طبقة أرستقراطية مترفة، وعندما سألت السكرتيرة عن الرجل الذي يرافق السيدة، قالت الآتي:

_ تقصدين السيد جاكوب ؟! إنه خطيب السيدة الأولى في الشركة.

خطيبها !! جاكوب !! لكن هل غيّر اسمه أيضا ؟! يا إلهي أي كابوس هو هذا ؟! أي مستنقع أوقعت نفسي فيه ؟! هل يحل المال محل كل شيء في هذا العالم ؟! ألا أساوي شيئا عنده ؟!

ابتلعت أسئلتي وأسرعت بالعودة إلى المنزل، ولكني لا أدري تحديدا ما لذي كنت مسرعة من أجله.. ربما للهروب من تلك الحقيقة الجاثمة أمام عيني. في اليوم الموالي عقدت العزم على الانفصال، وبالفعل تم ذلك، وحينما وصلته وثيقة الطلاق، جن جنونه وجاء ليحاسبني اليوم.

قالت سوزان فجأة:

_ أتقصدين هذه ؟

اقتربت مني وفي يدها بقايا من أوراق ممزقة، يبدو أن يعقوب تركها متناثرة على البلاط قبل أن يهم بالفرار.. عاينتها عن قرب ثم أشحت بنظري عنها سريعا:

استطردتْ قائلة:

_ حسنا، إنه لا ينوي على الطلاق كما يبدو.

أجبتها بصوت واهن:

_ السافل! إنه يخشى أن يخسر المورد الذي كان يزوده بالمال لا أكثر.

_ إذا علينا أن نفعل شيئا ما.

_ لكن مالذي سنفعله بحق الله؟

قالت سوزان بنبرة واثقة:

_ لا تكوني حمقاء يا ولاء.. ليست هذه النهاية، لأننا لم نبدأ كي ننتهي.

في ذلك اليوم، وأمام هذا الوجه الملائكي الذي يقف بكل عنفوانه بجانبي، شعرت ببصيص من الأمل يتسلل دون مقدمات داخل صدري.. شربت الدواء، وببطء غفوت دون أن أتدثر باللحاف كعادتي.. كنت أحلم بغد أفضل.

في هذا العالم يولد الصفاء الحظ، ويولد الحظ السعادة..

إليف شفاق

على رائحة اللوز المغلف بالسكر المنبعثة من أحد الباعة فتحت عيناي، كان الصباح قد حل أخيرا، وأشعة الشمس قد نشرت دفئها بتمرد ناعم على الحي اللاتيني، راودتني ذكرى بعض ما حدث الليلة الماضية، وتمنيت للحظة لو كان بيدي عصا سحرية لأمحو كل تلك الذكريات. لكنني لا أستطيع ذلك، ولا يوجد أي شيء في هذا العالم البائس يستطيع أن ينسيني ما حل بي.

_ صباح الخير!

تنتشلني سوزان من شرودي فجأة، وتهمس بعد أن تجس نبضي بكلتا يديها الناعمتين:

_ هل تشعرين بتحسن؟

يبدو لي لبرهة أني أعيش حالة دوار خفيف وانقباض في معدتي.. أوجاع طفيفة اكتسحت أسفل بطني متفاوتة الألم.. عيناي لا تزالان متورمتين من أثر البكاء الشديد، وكنت أشعر بالخدر والاكتئاب، وما زاد الطيب بلة رؤيتي لتلك الكدمات والرضوض على ذراعي وجسدي. عدا ذلك.. أنا بخير.

تبتسم سوزان بعفوية، ثم تدعوني للنهوض فأنهض مستندة عليها، وأسير حافية القدمين على أرضية باردة وصلبة، ولكن فجأة أتجمد في مكاني مثل تمثال. في المرآة لمحت انعكاس صورتي التي تشبه إلى حد ما صورة زومبي.

يا إلهي! مالذي فعله بي ذلك السافل؟ لم أتحمل ذلك المنظر وأحسست لبرهة أنني سأتهاوى لولا سوزان التي قالت لتهدئ من روعي:

_ لا بأس عليك، تحملي قليلا، ستكونين بخير.

أشاعت فيّ كلماتها بعض الغبطة، وسرعان ما استجمعت رباطة جأشي وسرت بمعيتها إلى المطبخ حيث قدمت لي قهوة وخبزا محمصا وبعض الفطائر. لم تطرح علي أي أسئلة، وأنا من جهتي لم أحك لها شيئا. عندما فرغت من فطوري لاحظتُ أنها متوترة، وتتجنب النظر إلى عيناي مباشرة.

_ كنت أعرف !

همست من بين أنفاسها فجأة، ترددت في أن تكمل الحديث، ثم في النهاية قالت:

_ عندما عدت للمنزل منهارة ذلك اليوم، عرفت أن هناك ما تخفينه عني. لن أكذب عليك.. طافت في رأسي عدة أفكار سوداء، وظننت للحظة أنك متورطة في مصيبة ما ومن حقي أن أعرفها، لذلك عزمت على التحري عنك.

واصلت قولها:

_ اتصلت بابن خالتي، وهو محامي معروف يقطن في ضواحي باريس.. قلت له في سياق حديثنا أن شريكتي في السكن تمر بأوقات عصيبة وأخاف أن تكون متورطة في مشكلة ما، فما كان منه إلا أن طلب أن أزوده ببعض المعلومات عنك لكي يضع حدا لهذه التساؤلات التي تقض مضجعي، وبالفعل.. لم يمر يومان حتى كانت كل المعلومات بحوزته. قال بأنك جئت إلى هنا بمعية زوجك، وأنه اختفى بعد ثلاث أشهر من قدومك إلى هنا، وأنك بلغت الشرطة الفرنسية مرارا لكنهم لم يحركوا ساكنا.

أغضبني ما سمعته كثيرا، حتى أنني وددت لو أوضب أغراضي وأرحل، ففي النهاية أنت كذبت عليَ، لكن لاحقا تفهمت ذلك.. حتى أنني لم أستطع تركك وحيدة.

هل كان مقدرا لنا أن نلتقي يا ترى، وأمنحك صحبتي طوال الطريق؟! أم أنني سوف أتركك فريسة للأحزان والمحن أنا أيضا؟!

صدقيني بقدر ما غضبت منك بقدر ما تمنيت أن يعرف الشفاء طريقه لقلبك.

اغرورقت عيناي بالدموع..

ولم أعي إلا وقد انتفضت من مكاني وعانقتها بقوة وبدورها فعلت الشيء ذاته. أحسست بدموعها على كتفي حيث امتزجت مع دموعي أنا أيضا. ثم غمرتني فرحة مفاجئة لم أشعر بها من قبل.. فرحة أشعرتني أنني لن أكون وحيدة بعد الآن.

قلت محاولة أن أهون عليها:

_ لا بأس، وبأية حال كان يجب أن تعرفي.

_ ماذا ستفعلين ؟

أطرقت رأسي في عدم فهم، فقالت موضحة:

_ بخصوص زوجك ؟

ابتعدت عنها ما يكفي لأنظر لعينيها الهادئتين عن قرب، ثم غمغمت:

_ سأستمر في المواجهة.

رأيت الحماس يشع في عينيها عندما قالت:

_ ابن خالتي محامي، وبإمكانه مساعدتك إن أردت ذلك.

_ ممتنة لك سوزان أقدر ما تفعلينه من أجلي، لكن لدي محاميّ الخاص.

علقت بأسف:

_ حسنا، لكن تذكري أنني هنا لمساعدتك متى أردت ذلك.

_ حسنا..

راح هاتفي يرن في الردهة، فألقيت نظرة خاطفة عليه. كان الرقم مجهولا، إضافة إلى وجود أكثر من عشر مكالمات فائتة.. من يكون يا ترى ؟! اعتذرت من سوزان لدقيقة:

_ ألو !

_ الآنسة ولاء ؟

_ نعم، من معي ؟

_ لعلك تتذكرينني، أنا عماد محامي السيد خليل.

كان هذا الجواب كافيا لأعرف من يكون، إنه ذات الشاب الثلاثيني الذي التقيته في شركة العم خليل منذ مدة، وقام بمرافقتي لزيارته في المشفى:

_ نعم أتذكرك جيدا، ماذا هناك ؟

لبث صامتا لثواني عديدة، جعلت الأفكار تتضارب في رأسي، وبعد صمت موارب غمغم قائلا:

_ آنسة ولاء، يؤسفني أن أنقل إليك خبر وفاة السيد خليل.

كان الشيء الوحيد الذي تذكرته بعدها أني ترنحت ورأيت الأرض تميد بي وتبتلعني. فقدت الوعي، وأثناء وقوعي اصطدمت بالمنضدة فسقطت المزهرية التي أحضرتها معي من الشام وانكسرت، فيما صرخت سوزان مرتعبة.

***

عندما استعدت وعي من جديد، وجدت نفسي في غرفة يكتسحها البياض من كل جانب.. ضوء متألق ومؤلم.. إبرة مغذي مغروسة في وريدي.. رائحة معقمات، وأصوات تأتي وتروح خارج الغرفة. حاولت أن أنهض فاعترضتني ألام حادة أسفل رأسي، وانتبهت صدفة لوجود ضمادة عليه.. ما لذي حدث؟ وما لذي أفعله هنا؟

فجأة تذكرت سبب إغمائي، وصوت المحامي عماد وهو يخبرني بوفاة العم خليل.

لا!!

انتفضت واقفة وانتزعت الإبر المحاطة بي وذهبت نحو الباب.. ما إن فتحته حتى رأيت سوزان واقفة بالرواق، وبجانبها كان المحامي عماد يقف هناك هو الآخر.. ركضت نحوهما وقلت بصوت واهن غلبت عليه الدموع:

_ هل كان ص... حيح!! ما.... ما...!

وعندما لم أتلقى ردا من كليهما، التفتُ للمحامي عماد قائلة:

_ لا يمكن أن يكون هذا صحيحا، قل شيئا أرجوك!

حافظ عماد على هدوءه، فيما اقتربت مني سوزان واكتفت باحتضاني فقط، هامسة بشيء بدا وكأنه مواساة:

_ الله يرحمه عزيزتي، البقية في حياتك.

خارت قواي فجأة وشعرت أني أصبحت على وشك الانهيار على الأرض والصراخ، إذ كم أستطيع أن أتحمل؟ وكم من العبء يتعين

علي أن أحمله بمفردي؟ وأين الخيط الذي قطع؟ لقد رحل آخر أمل لي في هذه الحياة.. رحل بلا عودة..

جمعت قبضة يدي ورحت أضرب رأسي بعنف:

_ أنا السبب... أنا السبب في كل ما حدث له.

_ آنسة ولاء! (تمالك عماد نفسه بصعوبة ليشرح لي) أنت لست سببا في أي شيء، لقد مات بسرطان الرئة.

_ سرطان الرئة!!

_ نعم، لقد كان يدخن كثيرا، و الأسوء أنه لم يخبر أحدا بمرضه حتى عائلته.

كان يجب أن أعرف ذلك.. كان يسعل طوال الوقت.. وأنا الغبية... كان كل همي أن يكفل قضيتي. ذاق صدري.. أحسست أنني سأختنق، وعندما رآني عماد على ذلك الحال خاطب سوزان قائلا:

_ سوزان عزيزتي خذيها لغرفتها رجاء.

عزيزتي!!

لكن هل حقا نداها بعزيزتي للتو، أم أنني لم أسمع جيدا؟! تراجعت إلى الخلف مندهشة ثم عدت لغرفتي منتظرة أن تلتحق بي سوزان، لكنها ظلت في الرواق ماضية في حوار هامس مع عماد، وأظنني كنت موضوع حوارهما.

سمعت صوت عماد يقول:

_ لكن كيف يفعل بها هذا، إنه مجنون من دون شك.

أطلقت سوزان تنهيدة عميقة:

_ ليس مجنونا!! بل معتوه يا عماد معتوه.

تمتم عماد ثانية:

_ أخشى أن كل هذا كثير عليها. (كانت نبرة صوته توحي بانزعاج شديد).

قالت سوزان موافقة:

_ أعرف هذا! إنها قوية جدا رغم ذلك.

وأردفت قائلة:

_ أنا واثقة من أنها ستكون بخير.

فجأة صار صوت عماد همسا:

_ حسنا اعتني بها جيدا، لدي عمل مستعجل سأقوم به وأعود لأطمئن عليكما لاحقا.

أطلقت سوزان ضحكة قصيرة:

_ عماد لن توصيني على صديقتي أليس كذلك!

كنت سأتظاهر بالنوم لولا دخول سوزان المفاجئ للغرفة. ارتبكت، وازدردت ريقي بصعوبة حتى أني أجزم أنها سمعت صوت الارتجاع في حلقي. انتظرت أن تقول (ولاء.. هل كنت تتنصتين علينا؟! يا لا فضولك).

لكنها همست بحبور:

_ لقد ذهب عماد، لكنه سيعود لاحقا.

وأضافت:

_ ليطمئن عليك!

حملقت في وجهها مليا، منتظرة أن تشرح أو تفسر لي لكنها ظلت صامتة، فسحبتها من معصمها بلطف وأجلستها بجانبي ثم قلت:

_ هل كنت تعرفينه من قبل؟!

أجابت:

_ نعم، عماد هو ابن خالتي الذي حدثتك عنه.

ران صمت طويل بيننا، ولم يصدر عن أحدنا أية صوت، ومن المؤكد أنها كانت تقيس اهتمامي بما قالته بعينين براقتين، فهمست بأسى:

_ حقا، يا لا محاسن الصدف!

وأدرت وجهي نحو النافذة لأخفي عيناي الدامعتين عن نظراتها المتفحصة. تمنيت في تلك اللحظة لو أني أملك نصف ما تملك؛ عائلة وأقارب أجدهم دائما بجانبي، لكن حتى هذه الأحلام أصبحت كثيرة علي. أمسكت سوزان بيدي حينها كأنها تنفي بشكل ما كل ما أفكر به، فجال برأسي في تلك اللحظة سؤال وجيه كان يفترض بي أن أطرحه عليها منذ أن فتحت عيناي على ضوء هذه الغرفة:

_ من أحضرني إلى هنا؟

ابتسمت لي، مما جعل عينيها اللوزيتين الداكنتين تبدوان أكبر حجما. كانت خصلات من شعرها التبني الطويل تتدلى على جبينها، فمدت يدها نحوها ودستها خلف أذنها ثم عادت للتكلم:

_ عندما فقدت وعيك، لم أعرف ما يتعين علي فعله. اتصلت ببن خالتي فجاء على الفور، وعندما وقعت عيناه عليك أصيب بدهشة عارمة، وقال لي بأنه يعرفك وبأنك موكلة رئيسه في العمل، ثم حملك بكلتا يديه وأحضرك إلى هنا.

شعرت بوجنتاي تتوردان خجلا، وتمنيت للحظة لو أن الأرض تنشق و تبتلعني، فمن يعلم أي حال كنت عليها عندما اقتحم عماد منزلي وأسعفني بنفسه.

مســاءً..

جاءت الطبيبة لتطمئن عليّ، كانت طبيبة سمراء البشرة ذات قوام نحيل كعود الخيزران، حيتنا بإسهاب، ثم اقتربت مني وأخذت تعاين الجرح أسفل رأسي، بعدها سلطت ضوءً أبيضا على عيناي، وطلبت مني بلكنتها الفرنسية أن أنظر لأصابع يدها وأتابع حركتهما يمينا وشمالا.

_ دعينا نجري أشعة مقطعية. (قالت بعد أن انتهت من معاينتي).

_ ماذا ؟ أشعة مقطعية ؟

ابتسمت الطبيبة بود قائلة:

_ نعم، لا تخافي إنها مجرد تصور لرأسك لنطمئن على سلامته.

بعد وقت قصير ذهبتُ إلى الآلة الضخمة، وأدخلت رأسي بالكامل فيها وكأنني كنت في غواصة فضائية.

_ يمكنك التمدد هنا لو سمحتي. (قالت ممرضة ترتدي مأزرا أبيض)، ففعلت مثلما طلبت، لكن سرعان ما داهمني نعاس شديد.

تعين علي الانتظار لمدة طويلة، قبل أن يُؤذن لي أخيرا بالخروج والعودة إلى منزلي، وفي الغرفة كانت سوزان بانتظاري وعماد أيضا، شعرت بعدم الراحة لوجوده هناك ولعله شعر هو أيضا بذيقي فقال لسوزان بينما يهم بالخروج:

_ حسنا سأنتظركما في الخارج لا تتأخرا.

شعرت بالذنب فجأة من أجل كل ما يفعله من أجلي. فقلت دون تفكير:

_ لا داعي لأن تنتظر لا أريد أن أكون عبئا عليك.

قاطعتني سوزان:

_ ولاء أنت لست عبئا على أحد كفي عن قول هذا رجاءً.

وأسرعت في حمل حقيبتي وحقيبتها معا كي لا تترك لي أي مجالا للمعارضة، وانسللنا بهدوء لئلا نزعج المرضى. شهقت عندما فاجئني الهواء البارد لشهر آذار في الخارج وألتف حولي، ولم يكن ردائي الأسود الرقيق كافيا ليحميني من هذا البرد، فطوقت نفسي بذراعيّ طلبا للدفء، قبل أن ألمح المرسيدس السوداء أمام المنعطف، ورأيت عماد يمسك لي الباب مفتوحا كي أصعد.

جلست على المقعد الخلفي شاكرة، بينما جلست سوزان في المقعد الأمامي إلى جانب عماد، وأخذ المكيف يعمل سريعا ليخرج الهواء المثلج خارج السيارة، وبعد ثواني عاد الدفء ليعم المكان.

_ هل تشعرين بتحسن؟

نظر لي عماد من خلال المرآة العاكسة، كان سؤاله موجها لي، فأومأت برأسي إيجابا وخطر لي أن أقول شيئا.. من الواجب أن أقول شيئا، ولكن فكرة الكلام والإفصاح عن مشاعري كانت

أصعب من قدرتي على الاحتمال فآثرت الصمت. لاحقا عندما توقفت السيارة في الحي اللاتيني، هب عماد ليساعدني على الخروج، ففقدت توازني فجأة وكدت أن أسقط لولا إمساكه بي في آخر لحظة:

_ انتبهي!!

التقت أعيننا لبرهة، فرحت أتأمل كل إنش منه، عيناه، وجهه، قوامه.. كان ذلك كفيلا بجعلي ارتبك بين يديه، ولعله شعر هو الآخر بارتباكي فأفلتني وتراجع خطوات إلى الخلف معتذرا:

_ آسف!

تركت الأمر ينتهي فحسب قائلة:

_ لا بأس.

أسرعت بالدخول إلى المنزل دون أن أنظر إلى ما ورائي، وتهاويت على الأريكة، قبل أن أسمع صوت محرك المرسيدس يهدر بصمت

مبتعدا في الشارع. تمنيت في تلك اللحظة لو أنه لا يذهب.. لو أنه يبقى هنا بجانبي.. لكنني انتشلت نفسي من هذه الأفكار بقسوة.

فجأة انتبهت للهاتف الذي كان يرن بإلحاح داخل حقيبتي.. من تراه يتصل بي يا ترى؟ نظرت لشاشة هاتفي، كان الرقم غريبا فآثرت عدم الرد. تكرر الاتصال مرة.. اثنتان.. ثلاثة.. ولم أجب أيضا، إلى أن تجاوز حدود اللباقة فرفعت السماعة بغضب.

_ من هناك؟!

جاءني الرد من الطرف الآخر:

_ حبيبتي أرجو أن لا أكون قد أزعجتك!

حبيبتي!! رفعت هاتفي ونظرت له باستغراب، هذا الصوت... هذا الصوت!! إنه ليس غريبا علي أبدا، سرحت في دوامة من الأسئلة حين باغتني ثانية:

_ ها لوو هل مازلت هنا؟!

وتابع قائلا:

_ بالمناسبة هل تمضين وقتك في التسكع مع من هب ودب هاته الأيام... يجب أن تعرفي أن هذا ليس في صالحك... أنت امرأة متزوجة لا تنسي ذلك.

إنه يعرف!! لقد كان يراقبني معظم الوقت... ذلك الوغد... إنه... إنه!

_ اسمعي، لا تجبريني على استعمال القوة ثانية، أنت امرأة عاقلة وتعرفينني جيدا حينما أفقد أعصابي.. آاه، وإنسي أمر الطلاق.. اتفقنا!

لم يسبق لي يوما أن سمعته يتكلم بمثل هذه النبرة الحادة الوقحة، تذكرت يعقوب القديم رجل ودود وطيب، وسرت القشعريرة في جسدي من هذا التحول الفظيع. أين كان يخبئ كل هذه الغطرسة يا ترى؟!

_ هل تعرفين عواقب ما تفعلينه؟! هل...

جمعت كل قوتي ببطء وأجبته بلهجة مقتضبة وباردة:

_ لست أنت من يملي علي تصرفاتي!

وأغلقت الخط في وجهه، وشعرت بأني قوية وفخورة بنفسي، لم أبدي أية خوف من تهديداته لي، كنت باردة، وكان صوتي خاليا من القلق أيضا، وأحسست أنني كسبت هذه الجولة لصالحي.

في الصباح تناولت بضع أكواب من القهوة، لأعطي نفسي طاقة ولكي أهدأ. كانت الفكرة هي أن أظل هادئة بقدر الإمكان، ولا أدع تهديداته لي تشيع الذعر في قلبي. أزلت الضمادة من رأسي، وارتديت ثوبا كحلي اللون يتناسب مع حزني، وفيما كنت مستلقية في غرفتي رن هاتف سوزان في الردهة وسمعتها تقول:

(الآن!! لكنها لا تقوى على المشي!! أعرف!! هل تريدني أن أجلبها إلى هناك!! حسنا!! سأقول لها ذلك!! أجل... أجل!!).

وبمجرد أن أنهت المكالمة قفزت إلى غرفتي:

_ علينا أن نذهب لمطار شارل دو غول حالا.

_ ماذا؟

هتفت سوزان وهي تحثني على النهوض:

_ هيا... هيا... عليك أن تستعدي، سأشرح لك في الطريق.

وهكذا وجدت نفسي أشق طريقي بين المسافرين في المطار، وأنا في حالة ذعر من أكون قد فوتُ الطائرة التي ستنقل جثمان العم خليل إلى سوريا. وقفت في تلك القاعة المخصصة لنقل الأشياء الثقيلة نحو الطائرات، كان هناك الآن ابنه البكر واقفا بثبات يتلقى التعازي من أقرباء العم خليل وأصدقائه في الغربة.

بعد لحظات.. التحق بنا عماد، وحدق فيّ بنظرة لم أستطع في ذلك الوقت تقييمها فقد كان من النادر أن يوجه مثلها نحوي. كانت نظرة حزينة ومواسية في نفس الوقت، وأخيرا سألني:

_ هل تودين رأيته؟!

فأجبته بنعم، رغم أنني لم أكن متأكدة من ذلك تماما، فطلب عماد منهم أن يتنحوا جانبا، وتقدمت أنا نحوه ومررت يدي على التابوت، ثم احتضنته للمرة الأخيرة، ورحت أخبره بما يعنيه بالنسبة لي، وبأنني ممتنة لكل ما فعله من أجلي. بعدها قرأت فاتحة الكتاب على روحه وقدمت تعازي الحارة لابنه، ثم ابتعدت عندما انطلق صوت المضيفة على الميكريفون مطالبا المسافرين بالالتحاق برحلتهم، وها أنا أعود أدراجي بينما بقي عماد هناك وعيناه ونحن نغادر المطار معلقتان بي، في تلك اللحظة بالذات أدركت أنني أحببته بصدق.

***

عدنا إلى البيت، فتحت الباب، دخلت. لكنني شعرت أن البيت لم يكن خاليا.. كان هناك أحد ما، لكنني لم أولي الأمر أية أهمية، إلى أن انطلق صوته يشق السكون:

_ أهلا.. أهلا!!

رأيت سوزان متسمرة في مكانها تحدق بمخاطبها بوجوم:

_ أوه، ماذا لدينا هنا.. من أنت، و أين هي زوجتي ؟!

زوجتي ! اقشعر بدني لسماع هذه الكلمة، وأسرعت إلى الداخل. فوجدته مضطجعا على الأريكة واضعا رجلا فوق رجل، وقد ملأ دخان سيجارته أرجاء المكان.

_ ما لذي تفعله هنا ؟! (صرخت به غاضبة) وأسرعت إلى النافذة لأفتحها على مصرعيها، فسمعته يدمدم:

_ كان بودي أن نتحدث بطريقة حضارية، لكنك تواقحت معي كالعادة وأغلقت الخط في وجهي.. ألا تذكرين؟

التفت إليه وقلت بجسارة، مستمدة قوتي من حضور سوزان المطمئن في المنزل:

_ لا يوجد ما نتحدث عنه، عليك فقط أن توقع على وثيقة الطلاق وننتهي من كل هذا.

_ هكذا إذن، يبدو أنك مازلت مصرة على رأيك.

_ أجل

تدخلت سوزان فجأة:

_ لما لا تدعها وشأنها، يكفي ما عانته بسببك حتى الآن.

استشاط يعقوب غضبا، والتفت إليها والنار تقدح من عينيه:

_ ما شأنك أنت؟

وحين رآها صامتة، تعمد مهاجمتها بنبرة حادة:

_ تبا لك. من أنت على أي حال ؟ وما لذي تفعلينه في منزلي ؟

_ منزلك ! ههه. (رددت سوزان بسخرية):

_ تقصد منزل زوجتك!

صاح يعقوب بلهجة آمرة:

_ أخرجي من هنا حالا.

لكن سوزان لم تتحرك قيد أنملة، وراحت تتحداه بنظراتها حتى طفح به الكيل، وانتفض من مكانه وراح يجرَها خارج المنزل. كل هذا وأنا أراقبه بصمت متفادية التلاسن معه، لكن سرعان ما ذقت ذرعا من تصرفاته، وها أنا أواجهه:

_ لماذا عدت الآن؟! (سألت) كان صوتي يرتعش، وقلبي ينبض بقوة مثل طبلة دق، أما الكلمات فراحت تنسكب كالسيل من فمي:

لا أعرف لما تصر على العودة ! ألا ترى ؟! نحن مثل العالقين في حلبة مصارعة الغلبة تكون فيها للأقوى.. في بعض الأحيان أنت تفوز وأحيانا أخرى أفوز أنا.. لماذا لا تزال تريد البقاء ؟! عندما تعلم أن زواجنا انتهى بالفعل، وما عاد بإمكاننا أن نصلح

شيئا منه.. لماذا نبقى ؟! بينما من الواضح أنك اخترت حياة أخرى منذ زمن طويل.. هل أنا من استبدلتك وأضرمت بقلبك نيران لا تنطفئ ؟! هل أنا من تركتك في منتصف الطريق ومضيت ؟! لقد انتهى كل شيء، عليك أن تتقبل هذا.

كانت إجابته مجرد ضحكة ساخرة، وفي لمح البصر اقترب مني حتى أصبح على بعد خطوتين من مكان وقوفي، فتمالكت نفسي بصعوبة وأنا أحدق لعيناه المتوهجتان كعيني حيوان متوحش.

قلت محاولة أن يبقى صوتي طبيعيا:

_ هيا، اضربني! على كل حال، هذا كل ما تتقن فعله.

وعلى الرغم من محاولاتي اليائسة شعرت بركبتاي ترتجفان، و بقلبي ينبض بقوة في أذني.

همس وهو يقترب أكثر:

_ ألم تشتاقي لي يا غبية؟!

وراحت يداه تحاول الوصول إلى غطاء رأسي لتخلعه، فصرخت غاضبة:

_ أبعد يدك عني أيها السافل.

ورغم صراخي إلا أنه لم يبتعد، بل أمسكني من معصمي وجذبني نحوه، ودون جدوى كنت أقاومه فتذكرت وأنا في حالة يأس تلك المزهرية فوق المنضدة ورائي، فسحبتها بعصبية وضربت بها رأسه وفررت هاربة إلى غرفتي وأوصدت الباب من ورائي بإحكام:

_ أيتها الـ*** هل نسيت أنني زوجك !!

_ زوجي!! وأين كان زوجي عندما كنت وحيدة مع طفل ينمو في أحشائي هاا ؟! الآن تذكرت أنك زوجي !!

انتظرتك طويلا (أقول).. أتعلم كم كان عليّ أن أكابر حتى أعثر على طريقي مجددا؟! إنك تجهل عمق مشاعر امرأة عندما تقرر غير مبالية التضحية في سبيل من تحب، بحياتها، بوقتها، وعمرها الذي يتداعى يوما بعد آخر.. تجهل كيف يحببن النساء من قلبهن،

وتجهل كيف يصبح ذلك الحب فجأة فجوة عميقة في وجه مستقبلهن.. كم انتظرتك بأمل.. (أقول بحسرة) آه كم انتظرتك في شوارع كنت أعلم مسبقا أنك لن تعود إليها ثانية، وفي داخلي أصبحت كنار يخمد لهيبها تدريجيا.. إلى أين ذهبت وأخذت قلبي معك؟! أقول وأصمت كما لو أن شيئا ما اعترض حلقي فجأة.

بدأ يعقوب في إطلاق سيل من اللعنات والشتائم، كل كلمة تخرج من فمه كانت بذيئة.. السب والشتم، والجنون المطلق الذي لا تحتويه الكلمات :

_ اصمتي، هل ظننت حقا أنه بإمكاني أن أحب غبية مثلك؟ أو أن أهدر أجمل أيام حياتي عليك؟ لا أنت مخطئة، أخوك ألـ*** هو من ألقى بك في هذا الجحيم بيديه، كنت أود لو يكتفي بتسديد الدين الذي عليه، لكن ذلك القذر آثر بيع شقيقته بأبخس الأثمان. وقبل أن أستوعب ما قاله، سمعته يضرب على الباب بيديه ورجليه كأنه يحاول كسره:

_ هل تسمعين؟ أخوك هو من زج بك في كل هذا.. لقد ضيع ثروة والده في وكر للمقامرة، وطلب مني أن أعيره بعض المال، ولغبائي أقرضته إياه، لكنه خسره كله في رمشة عين، وأنا الأحمق انجررت معه في هذه اللعبة.. آه اللعنة عليك وعلى أخيك أنتما أكبر بلاء نزل على رأسي، والأسوء من هذا أني حينما طالبته بمالي.. هل تعلمين ما الذي قاله لي؟! قال لي متفاخرا: لا تقلق، أختي ستنقذنا من هذه الورطة.. هي تملك الجنسية، وأبي غطى كامل تكاليف دراستها في الخارج.. كما أن لديها مبلغا دسما كافيا ليسد الدين الذي علي وأكثر، ثم ضحك ملئ شدقيه وتابع: لقد منعتها من السفر سابقا، لكن بإمكانك أن تتزوجها وتسافرا معا.. ههه ستعيش ملكا يا صديقي!!

لم أشعر بأطرافي من وقع ما سمعته، تمنيت للحظة لو أني أصاب بالطرش، لكن يعقوب لم يتوقف عند هذا الحد بل واصل في تعميق الجرح قائلا:

_ ألا تفكرين بهم أبدا؟ والديك وأخيك؟ أنا أفكر بهم كثيرا وأتساءل غالبا كيف رموك بهذه الطريقة القذرة.

صرخت به مسعورة:

_ كفى عن قول هذا.. أيها الوقح القذر ستدفعان ثمن فعلتكما هذه غاليا أؤكد لك.. هيا غادر بيتي حالا. وتهاويت على الأرض، ورحت أنشج نشيجا من غير صوت.. من غير دموع.. حتى أغميا علي بالكامل، ولم أستيقظ إلا بعد ساعة من الزمن على صوت الهاتف.. كانت سوزان على الخط:

_ سوزان!!

_ ولاء!! أوف الحمد لله.. خفت أن يكون قد أذاك ذلك المعتوه.. لقد انتظرته حتى غادر، لكن أخشى أن يعود قريبا ليكمل ما بدأه، أرجوك أخرجي من هناك حالا.. هيا أنا في انتظارك.

كان ندائها بمثابة طوق النجاة بالنسبة إلي.. وقفت وغيرت ملابسي وجمعت كل أغراضي وأغراضها معا، ثم ألصقت أذني بالباب أسترق السمع لأي حركة أو صوت يصدران من الخارج، لكني لم أسمع شيئا فتجرأت وخرجت. قبيل رحيلي كتبت له شيكا بحجم المال الذي أقرضه لأخي وأكثر، كرسالة مشفرة ليفهم أني لا أباع ولا أشترى، وأنني غالية، وأنه هو لا يساوي عندي فرنكا واحدا.. وها أنا أترك كل شيء ورائي وأغادر.

بدا كل ذلك مجرد حلم يقظة، منذ اللحظة التي غادرت فيها منزلي إلى اللحظة التي قابلت فيها سوزان وغلفتني بحضن دافئ كنت بحاجة ماسة إليه:

_ ولاء... ما لأمر؟ ما لذي حدث؟

صحت وأنا على صدرها:

_ خذيني من هنا يا سوزان.. رجاءً.

ربتت على كتفي برقة... حسنا... حسنا... هيا.

استقلينا سيارة أجرة، وأملت عليه عنوانا ما في ضواحي باريس، وما إن انطلق السائق حتى استندت على زجاج النافذة محاولة التخفيف من حدة الألم الذي ألمّ برأسي، ضاغطة جبيني على برودة الزجاج.

تفطنت فقط عندما هزتني سوزان برقة وقالت بأننا وصلنا.

***

نظرت من حولي، وجدتني قبالة حي من أرقى أحياء باريس النابضة بالحياة (حي إدموند فالنتين) بمبانيه الراقية.. قبلة رائعة لأولئك الذين يرغبون في التقاط الصور النموذجية لبرج إيفل وبرج الساعة.

_ ما لذي جاء بنا إلى هنا؟!

انفلت مني هذا السؤال على حين غرة.. لم أنتبه لسوزان التي كانت تنظر لي حينا ثم لهاتفها حينا آخر، متوخية الحذر في نظراتها، وبعد تردد وجيز قالت:

_ لقد هاتفت عماد وأخبرته بما حدث، فطلب مني أن نمكث في شقته ريثما يعود.

وأردفت ناهية:

_ لا أريد اعتراضا يا ولاء أرجوك.

لم أكن أنوي الاعتراض على ذلك، بل وجدت نفسي أسألها ببلاهة:

_ هل يقيم عماد هنا؟!

_ أجل، هيا!

شعرت بحمى الحب تجتاحني من قمة رأسي حتى أخمس قدمي، لكنني سيطرت عليها حتى لا تطفو إلى السطح وتفضحني، وها نحن نغزو شقة عماد دون سابق إنذار. شقة بسيطة جدا، عكست

ذوقه الرجولي واهتمامه بأدق التفاصيل. في الصالة كنبتان منجدتان بالإكرليك الأسود، غطى كذلك الكراسي التي أحاطت بطاولة الطعام المصنوعة من خشب الأبنوس. أما قطع السجاد فمزخرفة حسب التراث المغربي الأصيل. مكتبة كبيرة غطت حائطا بأكمله. شتلات النعناع والنرجس على حواف النوافذ والشرفة، لوحة كبيرة لفاطمة نسومر المقاتلة الفذة بوقفتها الشامخة تلك، وقد حملت رمحا في يدها تلوح به للاستعمار الفرنسي الغاشم.

إلى يسار الصالة، كان المطبخ و المكتب، وإلى يمينها غرفتان وحمام. شقة جميلة ودافئة تشعر المرء وكأنه في بيته.

بعد مرور أسبوع...

يمر الوقت، يقتطع تأشيرة مروره من عمري، وأنا كما أنا.. لم يتغير شيء، سوى أنني أصبحت كثيرة الصمت والشرود، وفي كثير من الأحيان أنسى إبريق الشاي على النار، وأشرد وأنا أعد القهوة حتى

تفيض في يدي. عماد لم يعد بعد، وأجهل فعليا سبب تأخره، سوزان وجدت عملا لها أخيرا وأصبح يشغل كل وقتها، وبقيت أنا وحدي ها هنا مكسورة الخاطر.. أخال نفسي في كثير من الأحيان أنني نسيت، لكنني لا أنسى، وأكابر فقط حتى لا أفقد الخيط الوحيد الذي يربطني بالحياة، بعدما انفلتت مني كل الخيوط الأخرى تباعا. تخبرني سوزان أنه علي أن أخرج وأرى العالم بين الفينة والأخرى، لكنني لا أفعل ذلك. كنت أدعي أنني ذاهبة للتنزه في الفترة الصباحية عندما تكون هي خارج المنزل، بيدا أن هذا لم يكن صحيحا، ففكرة الخروج والتجول وحيدة تجعلني أشعر بالخوف، ولعلها شعرت بذلك فشجعتني _ ذات مساء _ لأتواصل مع بعض الشركات علها تتبنّ مشروعي لرسالة الدكتوراه، وبالفعل قمت بذلك، وفي نفس اليوم استقبلت رسالة نصية من شركة فرنسية عتيدة أثنوا فيها على مشواري الناجح في أمريكا، وأبدوا كامل استعدادهم لتبني أطروحتي.

لكن لاحقا خاب ظني ثانية..

فبمجرد أن قابلت مسؤول الموظفين في الشركة وعرفته عن نفسي لا أعرف ما لذي حدث فجأة. نظر لي بازدراء شديد من قمة رأسي حتى أخمس قدمي، ثم اقترح ببرود فيما يستعرض الملف الذي وضعته أمامه:

_ تفضلي بالجلوس إن شئت.

ترددت مضطربة، إني أعرف هذا الصنف من البشر.. يثنون على تفوقك واجتهادك في البداية، لكن ما إن تتضح لهم صورتك وميولك الدينية ينتهون إلى القول أن قبولك مرهون بنزع الحجاب وما إلى ذلك.

جلست على حافة الكرسي، مقررة أن لا أطيل هذا الحديث:

_ حسنا (قال) مشروعك جيد كما يبدو، لكن هناك أمر واحد يجب أن نتفق عليه قبل أن نبدأ، وأردف قائلا:

_ هذا الغطاء الذي تضعينه على رأسك!! وأشار إلى حجابي باستهانة كأنه يشير لقطعة غيار رخيسة، فقاطعته بحدة في تلك اللحظة فيما أهم بالنهوض:

_ لا يا سيدي.. جوابي هو لا.. لم أرغب في نزع حجابي يوما، ولن أرغب فيه الآن..

لم يجبني حالا، بل ضيق عينيه من تحت نظراته الطبية ثم دمدم بفتور:

_ فكري في الأمر جيدا يا آنسة، قد تندمين لاحقا وتأتين إلي متوسلة.

_ أستبعد ذلك.. (قلت بجفاء).

_ إذن يؤسفني أن أخبرك أننا لسنا مهتمين بضم الراهبات إلينا حاليا.

راهبات!! حاولت التحكم في أعصابي وأنا أنصت لكلماته الوقحة، لكني أدركت أن الأمور ستؤول إلى الأسوء لو استمريت في هذا النقاش، فاستدرت عائدة من حيث أتيت صافقة الباب من ورائي بقوة.

كانت معرفتي أن هذا المجتمع المريض بالعنصرية هو ذاته الذي يتغنى بالحرية ليلة نهار هو ما يقهرني حقا، كيف حدث أن كل الذين عرفتهم استطاعوا أن يتأقلموا مع هذه الظروف بسهولة، أما أنا فلم أستطع ؟! بعضهم تملص من دينه فقط ليعايش ثقافة الغرب، والبعض الآخر اختار أن يتمسك بجذوره ويترك هذا الوطن الكابح للحريات، فيما لم أتمكن أنا من الانتساب لهذا أو ذاك، وعشت على الهامش تماما كورقة خريف ذابلة تلهو بها الرياح كيفما تشاء.

فجأة تجمعت الدموع في عيني، مع أن آخر ما أردت القيام به في تلك اللحظة هو البكاء، فقد شعرت فحسب أنني فقدت الأمل وما

عاد بإمكاني أن أتحمل مزيدا من الصدمات. رغم ذلك استجمعت كل قوتي ببطء وعدت إلى البيت، حيث يمكنني أن أتنفس بسلام بمنأى عن كل هذا الهراء الذي يلوث العالم. كان المكان هادئا، فعرفت أن سوزان لم تعد بعد.. ناديت على اسمها بحكم العادة:

_ (سوزان!)

لكن لم يكن هناك رد.. كانت سوزان غير قادرة على الهدوء، ولو كانت في المنزل لعرفت ذلك فورا، ليس لأنها ضوضائية و ما إلى ذلك، لكنها لا تهدأ أبدا.. سواء بالتحرك هنا وهناك جارة نعليها بحدة على البلاط، أو بالتكلم عبر الهاتف، أو مشاهدة التلفاز والدندنة، وإن لم تفعل هذا أو ذاك تقوم بقرع الأواني في المطبخ وتحويلها إلى طبول.

***

_ يا إلهي هل قال لك هذا بصريح العبارة ؟!

هتفت سوزان بدهشة ما أن أخبرتها بنتائج زيارتي لتلك الشركة الفرنسية، ثم استأنفت لترفع من معنوياتي ربما:

_ لا داعي للقلق.. أنا واثقة من أنك ستجدين من سيتبنى أطروحتك. فقط تحلي بالصبر.

_ حسنا. قلت وأنا أومئ برأسي على نحو يائس.

_ بالمناسبة عماد سيعود قريبا، و لديه مفاجأة سارة لك.

لي!! عدلتُ في جلستي والتفت إليها تدريجيا، ولم أفعل شيئا للحظات سوى التحديق بها ببلاهة منتظرة أن تضيف شيئا.. أي شيء، لكنها التقطت حقيبتها وجاكيتها، ونهضت مسرعة إلى غرفتها.

_ أي مفاجأة؟!

حدقتْ فيّ والبريق يملأ عينيها.

_ لا أعرف!

غمرتني موجة من مشاعر مختلطة في تلك اللحظة، الفرحة بعودته، والغيرة من سوزان التي تعرف كل شيء، في حين أبدو أنا الجاهلة الوحيدة هنا. هل تحبه؟ هل يحبها؟ هل ما يجمع بينهما يتجاوز رابط القرابة؟ كنت أحترق مع كل فكرة تخطر لي.. إلى أن انتشلني رنين الجرس من أفكاري:

_ هل تنتظرين أحدا ؟! سألت سوزان لكنها لم تجبني، أو ربما لم تسمعني لانشغالها بتبديل ملابسها في الداخل.

ذهبت إلى الباب وفتحته، فذهلت لدرجة أني لم أقدر على النطق والحركة، شل جهازي العصبي، ولم أفعل شيئا للحظات سوى التحديق بالوجه الواقف أمامي. خفت أن يكون هذا مجرد حلم سأصحو منه قريبا:

_ أ بـ ي!!

نظرت إليه. لتلك الملامح، لعينيه العسليتين وخصلات شعره التي خالطها الشيب، نظرت لفمه الذي راح يرتعش، والدموع التي

انهمرت على وجنتيه، ووجهه الذي تحول لقناع مشدود من الألم .... نعم إنه أبي!!

اقتربت منه، ولم أفعل شيئا للحظات سوى تلمس كل شبر منه لأتحقق من انه حقيقي ومن أنني لا أهذي، فجأة خطفني بقوة بين يديه، وضمني وقبلني ومسح على رأسي بحنان. نعم إنه أنت يا أبي!! لقد أتيت... أتيت من أجلي!! سمعت نفسي أتفوه بهذه الكلمات ولم أصدقها، كأن العالم كله تحول لحلم يقظة وأنا داخله، لكن إمساكه بي بتلك القوة أعادني فورا إلى الواقع، فبدأت أشعر بكل شيء من حولي وهتفت غير مصدقة:

_ أبي... أبي... أبي!! ورحت أبادله العناق وأبكي، وأستنشق ملئ رئتي رائحته المريحة، بدا كما لو أنه حزين للغاية، ولم يزعجني ذلك لأنني كنت طافحة بالحزن أنا كذلك. لم أنتبه لعماد الذي راح يتابع المشهد بتأثر مستندا على الدرابزين، وعلى وجهه شبه

ابتسامة لم تكن الأجمل ولكنها بثت في قلبي الشعور بالامتنان لكل ما يفعله من أجلي.

_ ولاء (قال أبي) ثم اختنق صوته وراح يبكي من جديد.

_ أنا آسف يا صغيرتي.. لم أكن أعلم أن كل هذا يحدث لك!

هززت رأسي الذي كان مسندا على قميصه ولم أقل شيئا.

_ هل أنت بخير الآن؟!

رفعت رأسي أخيرا ورحت أمسح دموعا انهمرت على خده:

_ أنا بخير يا أبي.

_ هراء! كوني صادقة ولو لمرة واحدة في حياتك، و لا تقولي أنك بخير دائما..

سمعت عماد في تلك اللحظة يخرج من صمته ويقول لكلينا:

_ يمكننا مناقشة كل هذا داخل المنزل.

انتبهت في تلك اللحظة أننا مازلنا واقفين عند الباب. جففت دموعي بطرف كمي وأفسحت لهما المجال للدخول، فسار أبي على إثري إلى غرفة الجلوس، وتبعه عماد الذي بدا مشعث الشعر وغير مرتب الهندام من تعب السفر ربما. حاولت على قدر الإمكان أن أصرف انتباهي عنه حتى وأن كنت مدركة أن ذلك يحزّ في نفسي كثيرا. إلى هنا دخلت سوزان الغرفة وتصرفت وكأنها مندهشة من رؤية أبي، لكن حيلتها هذه لم تنطلي عليّ البتة، فقد كانت أول من عرف بقدومه من عماد، وأخفيا عني الأمر ليفاجئانني به على الأرجح.

_ عمي صفوان (قالت) وأخيرا التقينا.. ونظرت إليّ وغمزت بعينيها اللوزتين:

_ لقد حدثتني ولاء عنك كثيرا.

ابتسم أبي وأحاطني بذراعه وسحبني نحوه مقبلا جانب رأسي، ثم قال لها:

_ حقا! وهل أنت هي سوزان التي ألحت عليّ في الهاتف لآتي إلى هنا.

نظرتُ إليها مندهشة.

_ هل فعلت ذلك حقا ؟!

ابتسمت سوزان بعفوية ولم تقل شيئا، ومضت إلى المطبخ، فتعقبتها بعينيّ إلى أن أشعلت الغاز وانهمكت في تحضير القهوة:

قال أبي:

_ كيف تسير أمورك إذا ؟

_ بخير، أنا مسرورة بمجيئك إلى هنا.

تأملني طويلا كأنه يحاول صبر أغواري، ثم نبس فجأة:

_ سأجعله يدفع الثمن يا صغيرتي.. سيدفع ثمن كل ما فعله بك.. سأفعل (قال) ذلك المتشرد اللعين... من يحسب نفسه... هل تجرأ حقا على مدّ يده عليك!! عديم الشرف!!

قلت وأنا في حضنه:

_ لا يا أبي، لا تهدر صحتك على ذلك السافل.

رفع ذراعه في تلك اللحظة عن كتفي، واستند على ظهر الكنبة مطلقا زفرات طويلة:

_ لكن لما لم تخبريني بذلك يا ابنتي، هل بلغ غيضك أن تنسي أن لك عائلة تحتمين بها.

قلبت عيناي وتساءلت للحظة عما يفترض بي قوله. تذكرتُ فجأة ما قالته لي أمي عندما هاتفتها آخر مرة: (ما لذي تريدينه؟! ألم تتزوجي بذاك المعتوه؟ انسي أمرنا إذا.. كما أن أبوك لا يرغب

في سماع صوتك ولا شقيقك أيضا...) وأغلقت الخط في وجهي. يبدو أنها أخفت عنه الأمر، وقررت أن أخفيه أنا كذلك.

_ لا لست غاضبة يا أبي، كل ما في الأمر أنني خفت أن يعلم يمان بذلك ويحبسني في البيت ثانية.

تبدلت ملامح أبي فجأة وبدا وكأنه رأى شبحا أمامه، ثم دمدم قائلا:

_ يمان!! لا تذكري اسمه أمامي!! ذلك الولد العاق!! لقد أهدر أموالا طائلة على القمار. وتابع دون أن ينظر إلي:

_ ابن الحرام!! لقد ورطنا معه في الديون، ولم يكتفي بذلك، بل سرق مجوهرات والدته أيضا وعندما تغاضينا عن ذلك تمادى أكثر فأكثر ورهن البيت الذي نعيش فيه للمافيا حتى يستطيع الحصول على مزيد من المال. فبلغت الشرطة عنه وهو الآن في السجن.

سأكذب إن قلت أنني شعرت بالأسف للمصير الذي آل إليه يمان، فهو في النهاية يستحق كل ما حل به، والآن هو في المكان الذي كان ينبغي أن يكون فيه منذ البداية.

* * *

_ سيد عماد، (قال أبي) سأكون ممتنا لك إن تكفلت بقضية ابنتي في المحكمة، على ذلك المعتوه أن يدفع ثمن كل ما فعله بها.

نظر عماد إليّ ثم إلى أبي ثم إلي، وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة يشوبها الكثير من الحزن، وسمعته يقول بعدها:

_ لقد أوصاني السيد خليل بذلك حقا.

همس أبي وقد عاد إليه حزنه القديم:

_ هل أوصاك حقا؟! يا لا الرجل الطيب ! لقد مات وفي قلبه حسرة على ابنتي.

أقبلت سوزان في تلك اللحظة تماما، حاملة صينية القهوة ومعها بعض البسكويت وكأس من الماء، كانت تستمع لحديثنا من المطبخ، لكنها لم تنبس ببنت شفة واكتفت بالتحديق بنا واحدا تلو الآخر بينما توزع القهوة بلباقة كبيرة، إلى أن وصلت لعماد فإذ به يغمز لها بعينيه ويبتسم ابتسامته الماكرة تلك، فشعرت أن العالم انهار من حولي فجأة، ورحت أراقبهما معا.. حتى عندما خاطبني أبي لم أسمعه، حتى عندما ناداني لم أسمعه. فجأة هزني قائلا:

_ ولاء أنا أتحدث معك يا بنتي.

ارتبكت وربما احمر وجهي، وادعيت أنني متعبة كثيرا في الآونة الأخيرة، وأنني مازلت أفكر في مقابلة العمل التي انتهت برفضي لأنني محجبة، ونهضت مستاءة إلى المطبخ.

شرحت سوزان لهم الأمر بروية، ثم تبعتني إلى المطبخ، فتجنبت الحديث معها حتى لا أمطرها بكلمات قد أندم عليها لاحقا. لكن سرعان ما انهار ذلك الحاجز ورحت أسألها:

_ هل.... هل تحبينه ؟

_ ماذا ؟

_ أقصد عماد، هل تحبينه؟

_ (ضحكت) ماذا تقولين يا ولاء عماد مثل أخي. لقد تربينا معا وكبرنا معا ومن غير المعقول أن يحدث شيء مما تفكرين به، ثم إنه.....

كانت ستضيف شيئا ما، غير أن أبي قاطع حديثنا على حين غرة. دخل المطبخ وراح يقبل جبيني ويطمئنني بأن الأمور ستكون على خير ما يرام. ثم استأذنني الانصراف فجأة:

_ لا يا أبي.. إلى أين ستذهب؟ أنا لم أشبع من رؤيتك بعد.

_ أنا هنا يا صغيرتي لا تقلقي، سأشتري شريحة جديدة لأهاتف والدتك وأخبرها بما حدث. ثم أحاطني بذراعه وحثني على السير معه إلى الباب بينما يدمدم بسخرية مرة:

_ أفكر بما أننا أصبحنا مشردينا رسميا وبلا وطن يأوينا، أن أحضرها إلى هنا لتمكث عندك لفترة.. ما رأيك ؟

_ يسعدني ذلك يا أبي. ورحت أغدق عليه بالقبلات والأحضان حتى انصرف أخيرا.

عندما عاد في المساء حرصت أن أعد له كل ما يشتهيه من طعام، وأدلله بحضور عماد الذي بدا مستمتعا بالعشاء هو الآخر، حيث أكل بشراهة وراح يثني على كل طبق يقدم له، ويستعلم عن مكوناته، كما لو كان يفكر في إعدادها بنفسه لاحقا. على الرغم من أنه _ على حسب أقوال سوزان _ غير قادر حتى على إعداد بيضة.

بعد العشاء، انهمك أبي في الحديث مع عماد، وقد أدهشتني قدرة هذا الأخير على تبادل الأحاديث بأريحية تامة، محافظا على نبرة صوته الدافئة والمغرية معا، ورحت أنا في أثناء ذلك أساعد سوزان

في توضيب المائدة وغسل الأطباق. بينما أتسمع على ما يقولانه في الصالة، حتى رن هاتف أبي وسمعته يقول عبره:

_ (أهلا.. أها!! لا... أجل... بالطبع... إنها هنا... لا أعرف... أتريدين التحدث معها!! حسنا).

ثم ناداني، ولوح لي بهاتفه قائلا:

_ والدتك تريد التحدث معك.

ازدردت ريقي ورحت أحدق بالهاتف مرتبكة، لا شك في أن أبي أخبرها بكل شيء.. ستثور في وجهي.. ستؤنبني بلا شك.. ستقول: ألم أنهاك ها؟! ألم أقل لك لا تسيري في هذا الطريق يا ابنتي.. ستقول أنني متهورة، و لا أسمع الكلام، وأنها _ كما دوما _ كانت هي على حق.. وأنني أنا لا أعرف مصلحتي، وسأبقى كذلك لبقية حياتي. فجأة تراجعت إلى الخلف منكمشة وأخبرت أبي بأنني لا أريد التحدث معها. ففغر فاهه في وجهي. رحت بعد ذلك

أبرر موقفي بلهجة باهتة، وكنت واثقة من أنها تستمع إلي من الطرف الآخر:

_ أخبرها بأنني آسفة يا أبي.. أخبرها أنها كانت على حق، وأنها ستبقى كذلك دوما.. أخبرها أن حياتي كلها انهارت لأنني لم أسمع كلامها.. أخبرها أنها الطوق الذي أتمسك به، منذ اليوم الذي ولدت فيه إلى الآن.. أخبرها أن عقلي ما انفك يفكر في كلماتها لتساعدني على الاستمرار.. أخبرها أنني أحبها، وأنها كل ما لدي، وتوسل إليها لتسامحني.

ثم انصرفت إلى غرفتي دون أن أنظر إلى ما ورائي. انهرت على مقعد بجانب النافذة، ورحت أتأمل منظر برج إيفل من بعيد بينما يتلألأ بأضوائه مبددا ظلمة الليل.

***

راحت الأحداث تتوالى بعد تلك اللحظة، وراح إيماني باكتساب قضيتي يكبر شيئا فشيئا بوجود عماد.. الذي تسلم مهمة إدارة الشركة بعد وفات العم خليل، وذلك طبعا بناء على توكيل رسمي من ابنه البكر الذي لم يشك للحظة في كفاءة عماد وخبرته المهنية وإخلاصه لذكرى والده، فأخذ عماد على عاتقه منذ تلك اللحظة تولي جميع المسؤوليات رغم صغر سنه. أما العم خليل فقد كان له ابنان لا غير وليس لهما أي علاقة بعمل والدهما. كان ابنه البكر مهندسا مثلي ويعمل في شركة كبيرة للإنشاءات، أما ابنه الأصغر فمازال طالبا في كلية الطب بجامعة السوربون على حسب علمي.

انتقلت بعد مدة أنا وأبي إلى شقة أخرى لا تبعد كثيرا عن شقة عماد، لكنه ما لبث أن راح يتذمر من غلاء المعيشة هنا في فرنسا، فكظمت غيضي وأنا أتذكر الشيك الذي كتبته ليعقوب في لحظة غضب، وكان من الممكن _ لولا غبائي _ أن يساعدنا الآن. طمأنته بأنني سأبحث عن عمل لي لمساعدته، فقال بأنه

أمرٌ صعب لأنهم يشترطون كالعادة خلع الحجاب في المؤسسات العامة. ثم راح يتذمر ثانية ويشكو.. إلى أن اتصل به ابن العم خليل ذات مساء و أظهر كامل استعداده لمد يد العون.. وهكذا عدت للحياة من أوسع أبوابها: عمل جديد، مدخول ثابت، ومنحة لأكمل دراستي في أرقى جامعات باريس.

أما سوزان فبقيت في شقة عماد، لأن هذا الأخير أصبح يمضي غالبية وقته في العمل وما عاد باستطاعته أن يمر لبيته ويطمئن على الساكنة فيه. كانت معظم معاملاته تتم عبر الهاتف، وتساءلت مرارا إن كان هذا الرجل المشغول دوما سيجد وقتا لي ولقضيتي. لكنه فاجئني ذات مساء باتصاله.. رأيت الرقم الذي حفظته عن ظهر قلب ولم أصدق، ثم رحت أرقص فرحا في داخلي، وتذكرت فجأة انه يتصل دائما في اللحظة الحاسمة ليقلب حياتي رأسا على عقب. كأنه يقول بطريقته بأنه هنا ولم ينساني رغم كل الانشغالات.

_ هل أنت مستعدة ؟!

_ لماذا؟!

_ للمواجهة.

_ بالطبع.

_ تعالي إذا للشركة لدي ما أخبرك به.

فالتقيته بعد أيام في مكتبه حيث يعمل. كان عماد قد جمع الأدلة الكافية في حال رفض يعقوب الطلاق بسهولة. كان حريصا على كل التفاصيل، لكنني كنت متوجسة مما سيحدث لاحقا، فقد اعتدت النحس الذي تعلق بحياتي وقلبها رأسا على عقب، ويا لا العجب كنت مستسلمة له كشيء لا بد منه.

الآن أنا في المنزل..

استفقت في السادسة صباحا على حمى اجتاحت كامل عظامي، ولم يستطع الأسبرين بمفعوله القوي أن يخفف أعراضها. كنت

أتصبب عرقا، ولم أكن مهيأة نفسيا لما هو آتي، لكنني نهضت رغم ذلك، وذهبت رفقة أبي إلى المحكمة حيث كان عماد ينتظرنا وحيدا. حياه أبي بإسهاب، أما أنا فاكتفيت بهز رأسي متجنبة النظر لعينيه الكحليتان، بعدها دخلنا إلى غرفة رحبة أين يوجد القاضي ومعه مساعداه. كنت أنا أثناء ذلك أطالع الباب مترقبة وصول يعقوب في أي لحظة.. لكنه لم يأتي، كان محاميه يقف بمفرده هناك، وبمجرد أن أعلن القاضي عن بداية الجلسة راح عماد يتكلم بثقة، مراعيا ترتيب كلامه وتسلسل أفكاره بسلاسة. منطلقا من رغبتي في الطلاق إلى الحجج التي دفعتني إلى ذلك. لكن الطرف الآخر كان له بالمرصاد.. تكلم على نحو متعجرف بأن موكله لا يرغب في الطلاق، وبأنه مازال يحبني.. وغيرها من الترهات، ثم فند الأدلة التي جاء بها عماد وقال بأنها محض افتراءات كاذبة ولا تستند للواقع. إلى هنا رفع القاضي الجلسة ريثما يتم التحقق من الأدلة التي بين يديه. أحسست أنني سأتهاوى فجأة، فأغمضت عيناي واستندت بيدي على الكرسي لأستعيد بعضا من توازني.

_ هل أنت بخير؟ (سألني عماد..)

_ مجرد دوار (أجبت).

_ إنها تتعب كثيرا في الآونة الأخيرة، (قال أبي) ما بك يا ولاء، هل تريدين بعض الماء؟

هرع عماد لجلب الماء، بينما بقيا أبي يسندني ويهدأ من روعي. دمدم بكلمات نابية تشبه التوعد.. لكنني للحظة توقفت عن الاستماع، ولم أعد أرى شيئا على الإطلاق، ولا حتى ما هو أمامي مباشرة، وبينما أنا أغرق شاهدت صورة ضبابية لسوزان وهي تهرول من بعيد قادمة نحوي، وما إن اقتربت وأمسكت بي حتى سرت قشعريرة في جسدي من ملمس يديها الباردتين كالثلج. تمسكت بها مستنجدة قبل أن يغمى عليّ بالكامل.

***

ربما استغرقت في النوم، وربما لا.. لكن في وقت لاحق من ذلك اليوم سمعت صوت أمي. كان صوتها قريبا وهادئا، ورغم أنني لم أستفق بعد ومازلت غارقة في غفوتي فقد كان واضحا أنني لا أحلم، وأنها هنا.. جالسة بجانبي بينما يتغلغل صوتها إلى الأعماق السحقية من رأسي.

كانت تقول أنها هي المذنبة حينما تركتني أفعل ما يحلو لي.. ظنت أنني سأكون بخير، وتمنت أن أكون على صواب بينما هي المخطئة.. ثم انبثق صوت آخر.. صوت أنثوي هادئ ليجيبها:

_ هذا ليس ذنبكما إن كنتما تعتقدان أن كل البشر سواسية، ولا يوجد شر قابع في النفوس يا خالتي.

عاودت هي الحديث ثانية، وأكدت بنبرة حاسمة أنها المذنبة رغم كل شيء، فتصرفات الأبناء منوطة بتربية أبائهم لهم، وقد شعرت فجأة أنها لا تعنيني أنا بقدر ما عنت أخي بكلامها. ثم راحت تحكي لسوزان عن طفولتي المترنحة. قالت بأني كنت طفلة

متمردة منذ صغري، وأنني ما أنفك أوقع نفسي في المشاكل ولا أهتم، وأنني لا طالما أتعبتها بميولاتي الغريبة ورغبتي دوما في أن أكون مختلفة عن جميع أقراني. تكلمت على ذلك النحو لدقائق طويلة، ثم انفجرت باكية، ولم أستطع أنا التي كنت أتظاهر بالنوم أن أهون عليها أو أن أضمها إلى صدري.. سمعت سوزان تقول لها:

_ ما بك يا خالتي سُلاف؟ هوني عليك، هيا خذي نفسا عميقا..

لكنها لم تهدأ، بل راحت تشهق بقوة.. شهقات كانت تصل إلى أذني مشحونة بمعاناة نسيت على إثرها معاناتي، فتوقفت فجأة عن التظاهر بالنوم واحتضنتها بقوة.

همست: (ولاء!) ثم مررت يدها على شعري..

فتمتمت في أذنها بحزن: (لا تبكي !).

وبقيت احتضنها حتى كفّت أخيرا عن البكاء، ثم ابتعدت لأنظر إليها عن قرب. كنت سأقول أنها لا تزال كما هي، لولا تلك التجاعيد الدقيقة التي اكتست جبينها وعينيها، ومن بين ثناي شعرها ظهرت خيوط من الشيب ناصعة البياض، بينما ظلت ابتسامتها محايدة ونظرتها مفعمة بالحب والحنان. تذكرت فجأة أنها لم تحب السفر في حياتها، وكانت تشعر بالدوار بمجرد أن تعبر الشارع، وها هي تستقل الطائرة وتسافر ليلا وتأتي إليّ.. أمي التي لم تجرأ قط عن الابتعاد عن حينا في محافظة إدلب، أجبرتها الحرب أن تهرب إلى بيروت ومن ثم إلى العاصمة باريس لتلاقي ابنتها الوحيدة.. أمي التي لطالما ارتبط اسمها في رأسي بالجذور المتشبثة بالأرض.. ها هي الآن تجلس بجانبني مطأطئة الرأس وكأن كل هموم الدنيا نزلت على رأسها.

_ آاه! آاه! (ردّدت بحسرة) ماذا فعلت بك الحياة يا ابنتي!

_ أنا بخير يا أمي.. أنا بخير الآن.

صاحت فجأة:

_ بخير!! آه يا إلهي، انظري إلى نفسك.. لقد أصبحت جلدا على عظم كالمومياء، وتقولين أنك بخير!!

حاولت أن لا أدعى كلامها يتغلغل داخل رأسي خشية أن يسبب لي الألم، لكنها راحت تعاتبني بكلمات مثل: (هل رأيت عواقب ما فعلته ها ؟! هل استوعبت الآن ما لذي يحدث عندما تفعلين ما يحلو لك ؟!) وتهزني من كتفي تارة، وتارة من ذراعي.. حتى أدركت فجأة أنها لم تتغير كثيرا، ومازالت تتحلى بالنبرة التهجمية نفسها التي عهدتها فيها، لكنني في حالة المرض تلك كنت أضعف من قدرتي على الرد عليها، فآثرت الصمت إلى أن دق أحدهم جرس الباب أخيرا لينقذني من سيل من التوبيخات التي انهالت علي كالسيط.

قفزت سوزان بخفة لتفتح الباب، وسمعتها تهتف:

_ أهلا!! إنهما في الداخل تفضلا..

عادت بعد برهة مع أبي الذي بدا متعبا للغاية.. نظر لي مليا ثم قال:

_ كيف أصبحت الآن؟

_ أنا بخير يا أبي.

فإذ به يغير قناع وجهه ويغير نبرة صوته فجأة:

_ حسنا، ضعي شيئا على رأسك وتعالي إلى الصالة السيد عماد يريد التحدث معك.

تدخلت أمي:

_ ألا ترى أنها مريضة؟ ومن هو السيد عماد هذا؟

صاح فاقد الأعصاب:

_ إنه الرجل الذي سيخلص ابنتك من الوغد الذي يسمي نفسه زوجها.

انتفضت من مكاني على وقع صرخات أبي، وأسرعت بتبديل ملابسي وارتداء حجابي، وبينما أنا ألقي نظرة خاطفة على المرآة طالعني وجهي الشاحب، وفكرت لو أنني على الأقل تزينت قليلا لأبدو في صورة أحسن، لكن فات الأوان على ذلك.

دخلت الصالة مطأطئة الرأس، فسألني أبي على حين غرة:

_ أين ذهبت كل أموالك يا ولاء؟!

وتابع من دون أن ينتظر جوابا:

_ هل أنفقتها على ذلك السافل هاه ؟!

نظرت لأبي لثانية ثم لعماد لثانية أخرى، كان يجلس في وسط الصالة مشهرا في وجهي صقيع صمته، فكان لا بد لي من الدفاع عن نفسي أمامه، لكن الكلمات أبت أن تخرج من فمي ورحت أتأتئ:

_ أنا... أنا..

دمدم أبي:

_ أنت ماذا ؟! وإياك أن تكذبي عليَ.. لقد قابلتُ زوجك المعتوه منذ قليل، وهل تعلمين ما لذي قاله لي؟! قال لي بأنه لن يطلقك لأنك ترجيته ليبقى معك، حتى أنك تنازلت له عن مبلغ كبير من المال من أجل ذلك. في البداية اتهمته بالكذب.. هه ! قلت له بازدراء أن ابنتي لا تفعل شيئا كهذا.. هي لا تذل نفسها من أجل رجل سافل مثلك، فأثبت لي ذلك من خلال الشيك الذي منحته له.

غمغمت بنبرة مهتزة:

_ لا هذا غير صحيح.

_ وهل ينبغي لي أن أصدقك ؟!

صرخت فجأة وأنا أبكي.

_ كفى يا أبي... أنت لم تكن موجودا عندما كان ذلك السافل يوجه لي سيلا من الإهانات. لقد قام بإهانتي، و إهانة أخي و

إهانتكم.. قال بأنكم رميتموني في حضنه بطريقة قذرة.. قال بأنكم بعتموني من أجل ابنكما المقامر، وعلي أن أسدد ديونه كاملة وإلا لن يتركني وشأني. هل كان علي أن أبقى أمه له لبقية حياتي؟! لا وألف لا.. أنا لست أمه لأي أحد يا أبي.

رفع صوته فوق صوتي:

_ وهل أجبرناك أن تكون أمه له أيتها الغبية ؟!

تدخل عماد فجأة ليحل النزاع:

_ سيد صفوان، لا تحل الأمور بهذه الطريقة.

_ و كيف ستحل إذا ؟! لقد أفنيت زهرة شبابي ليعيش أبنائي في رخاء، و مالذي فعلاه ليردا لي الجميل ها ؟! الأول أهدر أموالا طائلة على القمار، والثانية أهدرته على زوجها السافل.

أردت أن أقول له بأنني سأعمل.. بأنني سأجتهد وأرد له الجميل.. أردت أن أهون عليه وأخبره بأني آسفة، لكنه نهرني قائلا:

_ اخرسي، لا أريد سماع صوتك بعد الآن هيا أغربي عن وجهي حالا.

انتفضت سوزان عند سماع ذلك، وهي تغمغم:

_ تعالي معي، ساعديني في إعداد العشاء.

وأمسكت بيدي واقتادتني إلى المطبخ، لكن الأمر لم ينتهي عند هذا الحد. تبعتنا أمي بعد برهة إلى المطبخ وأخذت تزعقُ في وجهي هي الأخرى:

_ هل صحيح ما سمعته أذناي؟ هل صرفت أموالك على ذلك السافل ها؟

_ أمي أرجوك..

سمعت زفيرها يخترق طبلة أذني:

_ آه ! أيتها الغبية البلهاء.. هذا آخر ما كنت أتوقعه منك.

صرخت:

_ وماذا كنت تتوقعين إذا ؟! هل أتركه يلاحقني لبقية حياتي فقط لأن ابنك العزيز تدين منه المال ولم يرجعه إليه ؟!

_ كان عليك أن تخبر والدك بالأمر، لماذا يجب أن تدفعي أنت الثمن ؟

ثرتُ عند تلك الملاحظة:

_ أخبرُ أبي ها ؟! من الأفضل أن لا نتحدث في هذا الموضوع يا أمي، لأنني لو تحدثت فلن يحدث خير.

_ بل تحدثي، أفرغي قلبك هيا.

_ ليس عندي ما أقوله.

_ بل عندك، تفضلي.

_ لا تدّعي الجهل يا أماه، لقد اتصلت بك.. لكنك لم تتركي لي أي مجال للتحدث، بل أغلقت الخط في وجهي أيضا.

_ أحسنت، مالذي تريدين إقناعي به الآن؟! أنني أنا المذنبة، وأنك أنت الضحية الوحيدة هنا، وهل أنا من أجبرتك على الزواج منه أيضا؟

_ كفى ! كفى يا أمي.. أرجوك كفى..

انصرفت إلى غرفتي وأغلقت الباب من ورائي بإحكام. كان كل ما تبادر لذهني في تلك اللحظة، أنني متعبة وحانقة من نفسي ومن والداي وأخي ويعقوب، ومن كل شيء له علاقة بماضيَ البائس. كنت وسط دوامة ويصعب علي التكهن إن كنت سأخرج منها سالمة ذات يوم.

بعد برهة طرق أحدهم باب غرفتي وسمعت صوت سوزان تهمس في الممر:

_ هذه أنا افتحي!

مشيت على رؤوس أصابعي وفتحت لها الباب، فدخلت، وظلت تتأملني لبرهة كما لو أنها تحاول صبر أغواري، ثم ما لبثت أن أحاطتني بذراعيها وهي تقول:

_ أعرف أنه أمر صعب! وسيبقى كذلك دوما، لكنني مقتنعة تماما أنك فعلت الأمر الصواب، ولو كنت مكانك لفعلت الأمر ذاته.

لم أقل شيئا..

تملصت منها، وخطوت نحو النافذة. ما عدت في حاجة إليها، ما عدت في حاجة إلى أحد، كل ما أحتاجه حقا هو استعادة نفسي التائهة.. أن أنعزل وحدي وألملم شتاتي بعيدا عنهم.

***

مساءً، وفي اللحظة التي لامس فيها رأسي الوسادة، عاودت سوزان الظهور ثانية، ودعتني لتناول العشاء معهم، فارتبكت حينذاك، وادعيت أنني متعبة ولا أشعر بالجوع. كنت أعرف أنه ليس من

اللبق أن أرفض.. خاصة بوجود عماد الذي دعاه أبي للعشاء في منزلنا. إذ سرعان ما توطدت علاقتهما معا، وصار أبي لصيقا به كظله، حتى أنه جره للجلوس معه قبالة التلفاز ومشاهدة آخر المستجدات في سوريا.

في نهاية الأمر استسلمت ورافقت سوزان إلى الصالون، حيث جلستُ دون أن أكلف نفسي عناء الحديث. كانت أمي رغم ذلك ترمقني بنظراتها الثاقبة بين الفينة والأخرى، وعلى عكسها أبي كان يتجاهلني كأنني غير موجودة. أما عماد فكان يأكل المعكرونة التي أعدتها سوزان ويقسم شريحة اللحم دون أن يتفوه بأي كلمة، حتى أخرجته أمي من صمته على حين غرة، وراحت تثني على طبيعة عمله في المحاماة، وكيف أنه تقبل المسؤولية التي وضعت على عاتقه دون أن يشكو أو يتذمر، وعندما انتهى من صحنه أخذت تلح عليه لملء صحنه مرة أخرى و أبى هو أن يرفض طلبها.

بعد العشاء رحت أنظف الطاولة بصمت، فانتفض عماد وعرض نفسه لتوضيب الأطباق معي فوافقتُ بفرح مناقض لما هو في داخلي، وحين سمحت له الفرصة قال دون مقدمات:

_ أنا آسف.

نظرت إليه عن قرب محاولة أن أفهم ما يرمي إليه، فشرح قائلا:

_ كان علي أن أذهب وحدي لمقابلة زوجك، لكن السيد صفوان أصر أن يأتي معي.

_ لا بأس، أنا أعرف طباع أبي جيدا.. لا داعي للاعتذار.

مال إلى الأمام وأخذ يتأمل كل شبر من وجهي برقة، ثم ظهرت شبه ابتسامة على زاوية فمه وهو يقول:

_ هل هذا يعني أنك لست غاضبة مني؟

قلت وقد نسيت أن أتنفس:

_ كلا عماد.

اعتذر إلينا بعد ذلك كثيرا منوها بأن لديه عمل مهم، وانسحب فور انتهائه من تناول القهوة التي أعددتها له بنفسي.

استيقظت بعد ذلك بيومين، ورحت أحاول أن انتشل نفسي من أجواء البيت المشحونة بالتوتر، فانغمست في تهيئة مشروعي لرسالة الدكتوراه بمعية الشركة التي باشرت العمل فيها، ففوتُ بذلك أي فرصة للتفكير في مشاكلي الشخصية، لكن وبمجرد أن أعود إلى البيت متعبة تستقبلني نظرات أبي وأمي المعاتبة لتوقظ كل ما ظننت أنني نسيته، فاضطر غير مرة للانزواء في غرفتي مناشدة الهدوء بعيدا عنهما.

مرت أيام نيسان هكذا بين مد وجزر.. لا أحد استطاع أن يفهم سبب ما فعلته.. لا أحد استطاع أن يشعر بما أشعر به، حتى سوزان نسيتني على حين غرة، وكلما هاتفتها تتذرع بالعمل الكثير

حتى قررت ذات يوم مفاجأتها بزيارتي..... لكن كانت هي من فاجأتني..

عندما وصلت لشقة عماد كان الباب مواربا فدخلت. شعرت أنني متطفلة وكأنني اقتحم خصوصيات الآخرين دون إذن، ولكن الأمر أصبح مربكا أكثر وأنا أسمع أصواتا قادمة من المطبخ، سمعت صوت سوزان تقول:

_ هل لي أن أعرف لما لا تتقدم لها مادمت تحبها لهذه الدرجة؟

انبثق صوت عماد من العدم ليجيبها:

_ أتقدم لها !! هل جننت ؟! لا تنسي أنها امرأة متزوجة:

_ نعم و ستتطلق قريبا.

_ ربما بعد زمن طويل.

_ بعد زمن طويل !! لكن ألست أنت محاميها ؟! افعل شيئا يا هذا..

اكتفيت بذلك الحد واندفعت عبر الممر دون أن ألتفت خلفي، لقد كانا يتحدثان عني دون شك، لكنني لبثت لثواني غير مصدقة، إذ لم أعتقد قط أن هناك من سيقع في حبي بعد كل ما مررت به وعانيته.. لم أعتقد أن هناك من سيملأ الفراغ الذي خيم على قلبي منذ غياب يعقوب، لكن الآن أدرك أن الله يمنح الأمنيات دائما لمن أرادها.

منذ تلك اللحظة أفرغت قلبي لأحمل عماد بداخله.. تجاهلت الحياة و ما تنذرني به مخاوفي فقط من أجله، وفي الأخير جاء اليوم الذي يجب أن أبدو فيه في كامل شجاعتي. دخلت أروقة المحكمة بإيمان مطلق بأنني سأنال حريتي في الأخير، ولن يتعين علي بعد الآن أن أرضخ للهواجس المضطربة في داخلي.

ولكن المفاجأة أنني ما كنت بحاجة لكل ذلك القدر من الشجاعة لأربح قضيتي، إذ بمجرد أن أعلن القاضي عن بداية الجلسة لا أعرف ما لذي حدث فجأة حتى بات كل هم محامي يعقوب أن

يسرع في معاملة الطلاق وبأقل الأضرار الممكنة. مبديا كامل استعداده لدفع المبلغ الذي يضمن لي حياة مستقرة هنا في فرنسا، مع أخذ كل ما أريده من المنزل في الحي اللاتيني. ابتسمت بسخرية في وجه يعقوب حينها، لأنني كنت أعرف أنّ ما يحسبه تكرما من حضرته عليّ كان ملكًا لي أنا بالأساس. بعد نهاية الجلسة وبعد أن نلت التهاني والتبريكات من والداي، هممت بالانصراف مختالة بانتصاري، فإذ بيعقوب يظهر أمامي فجأة:

_ لا تظني أنك انتصرت، فلولا أن زوجتي حامل ويتعين علينا أن نعقد قراننا في أقرب وقت لما كنت لتنالي مرادك.

دمّرني هذا الخبر، لكنني حافظت على رباطة جأشي وأنا أقول له:

_ أتمنى من كل قلبي أن تستمر في هذه الزيجة، وأن لا ترمي بك زوجتك هذه في الشارع في أقرب مناسبة.

وصل عماد في تلك اللحظة تماما ووقف بجانبي، وبدلا من أن يلتزم الصمت في المحكمة كما هو متوقع من شخص مثله قال:

_ آنسة ولاء، هل يزعجك هذا الأبله ؟

هاجمه يعقوب بلهجة حادة:

_ ما دخلك يا هذا، لماذا تحشر أنفك في كل شيء ؟!

وما هي إلا لحظة خاطفة، حتى سدد عماد لكمة قوية إلى وجه يعقوب أردته أرضا، وقبل أن يتمكن هذا الأخير من الرد عليه جاء أبي ليفك النزاع بينهما منبها عماد إلى أننا في المحكمة، وعليه أن يتحكم في أعصابه ريثما نخرج من هنا..

أما أنا فأصبتُ بالخرس فجأة، بعد الخبر الذي قذفه يعقوب في وجهي، وأصبح كل همي أن أغادر هذا المكان وأن لا أنظر خلفي. قلت وداعي وخرجت من المحكمة. كنت أسير في الشارع بالقرب من منزلنا عندما رأيت امرأة برفقة طفلها الصغير، فشعرت بغصة

في حلقي وبحسرة يعقبها شعور جارف بالنقص وأنا أتأمل منظرهما.

أنا أيضا كنت حاملا ذات يوم وودت لو أحمل طفلي بين يداي وأشعر بحركات أطرافه المتشنجة في حضني.. أنا أيضا وددت لو أصبح أما وأرعى أطفالي بنفسي وأهتم بشؤونهم، وكنت سأشعر بالامتنان لتلك المسؤولية التي وُضعت على عاتقي. لكنني وجدت نفسي بين ليلة وضحاها وحيدة إلا من خواطري وانتظاري البائس لشخص سلبني كل ما أملك ومضى.

الآن كل ما أفكر به حقا هو كيف سأنهض من جديد من تحت الركام ؟ كيف سأنسى وأستمر؟ و كيف سأمارس حياتي القادمة بلا روح ؟!

لا أحد مستعد فعليا للإجابة على أسئلتي ولا حتى أنا، لأن معظمها إجابات حزينة ستقودني حتما إلى التقوقع على ذاتي الأكثر ظلمة.

حكيت كل ذلك لسوزان عندما عادت من العمل، وكانت كالعادة كلها آذان صاغية إليّ. أتذكر ردة فعلها حينذاك: نظرت لي غير مصدقة وكأنها تقول: أكنت تودين إنجاب طفل من شخص تزوجك فقط لمصلحته الشخصية ؟!

كنت سأجيبها بنعم لو واجهتني بسؤالها علانية.. كنت سأطمح لذلك طبعا، وكنت سأربيه بمفردي، وأحرص أن أكون أمه وأخته وأبوه.. سأبذل جهدي ليكون بارا يحترم قيمة المرأة ولا يسيء إليها، ويكون سندا لها لا عليها. سيكون ابني أنا.. أنا فقط لا غير، لكنني كتمتُ كل ذلك في داخلي عندما اختارت هي التكتم عنه.

في المساء نفسه، اتصل بي عماد على هاتفي المحمول وراح يعتذر عما حدث في المحكمة، لكنني وعلى غير العادة عاملته ببرود ولم اؤلي ما قاله أية أهمية، فشعرت أن أنفاسه تهدجت فجأة حينما قال:

_ حسنا، أعتقد أن هذا كل شيء، لن أزعجك بعد الآن.

شدت عبارة (لن أزعجك بعد الآن) اهتمامي. صدمتني. ظننت حينها أنني غير مبالية بأي شيء.

_ لقد انتهى أخيرا كل شيء.

_ نعم (قال) لقد انتهى.

كنت أعني بأنني انتهيت من يعقوب أخيرا، لكنه على الأرجح فهمها بأنني ما عدت بحاجة إليه وأن لا داعي لاتصاله بي بعد الآن.

تهدج صوته مرة أخرى:

_ انتبهي إلى نفسك.

وأغلق الخط.

وقفت ساكنة لبضع ثواني، أحدق بشاشة هاتفي عله يعيد الاتصال بي ثانية، لكنه لم يفعل.. انتظرت وانتظرت دون جدوى.

خاتمة:

تغيرت أشياء كثيرة منذ طلاقي من يعقوب، لدرجة ما عدت قادرة على مواكبة الأحداث التي بدأت تتسارع أمام عيني، فكل يوم كان حافلا، وكذلك كل الأسابيع والشهور التي تلت ذلك اليوم. كنت أصل لعطلة الأسبوع منهكة ومتسائلة كيف مر كل هذا الوقت من دون أن أشعر.

يقفز إلى ذهني الآن ذكرى تلك الأمسية التي هاتفني فيها عماد، وكنت حزينة ومتعبة بما يكفي لكي لا أعيره الاهتمام الكافي.

سمعت نبرة صوته التي تغيرت فجأة، وعندما أغلق الخط شعرت بفضاعة ما ارتكبته ضده ؟ كان شعورا فضيعا.. كما لو أن ثقبا

هائلا انحفر داخل صدري وراح يزداد عمقا مع الأيام، إلى أن امتلكت الجرأة الكافية لتحمله، فمقارنة مع كل ما مررت به بدا غياب عماد شيئا أستطيع أن أتعايش معه، رغم أنني في أوقات عدة كنت أتحين ساعة عودته من العمل ليطمئن على سوزان، فألصق أنفي بالنافذة وأراقبه خلسة من وراء الستار.

فعلت ذلك مرارا، إلى أن بدأ صبري ينفذ.. إلى متى سيستمر هذا الحال ؟ جاء قراري بعد ذلك سريعا، فهرعت لسوزان عازمة أن أخبرها بكل شيء، فلا يمكنني البقاء معلقة هكذا لبقية حياتي.

وقفت أمام باب شقتها وقرعت الجرس، لكن لم تكن سوزان من فتحت الباب بل هو.

_ إن كنت تبحثين عن سوزان فهي ليست موجودة الآن.

(بادرني بلهجة جافة)

_ حقا، وأين ذهبت ؟

_ لقد سافرت إلى الجزائر لبضعة أيام.

_ لكنها لم تخبرني بذلك.

_ وهل يجب أن تأخذ إذنك ؟

قال ذلك ببطء وبدقة، بينما كانت عيناه الباردتين تحملقان في وجهي.. تتأملانني وأنا أمتص ما كان يقوله.

_ أنا لم أكن.. أعني.. أنا !!

_ حسنا، أراك قريبا.. إلى اللقاء.

رفرفت عيناي بقوة محاولة منع الدموع من الانهمار بينما كان يغلق الباب في وجهي.

_ انتظر لحظة.

استدار في اتجاهي ونظر إلي:

_ ماذا هناك ؟

_ حسنا أنا آسفة.

حملق في وجهي مليا كأنه لم يفهم سبب اعتذاري، أو أنه فهمه ويريد أن يتأكد من مدى صدقه، وأخيرا بعد لحظة صمت طويلة نبس قائلا وشبه ابتسامة لئيمة على شفتيه:

_ سأقبل اعتذارك لكن بشرط.

طأطأت رأسي في عدم فهم فقال موضحا:

_ أن تقبلي دعوتي للعشاء.

هل قبلت دعوته يا ترى ؟!

لا أذكر ذلك حقا.. أتذكر فقط أنني كنت جالسة في إحدى المطاعم الفرنسية بشارع الشانزيلزيه، ألتفت خلفي بين الفينة والأخرى منتظرة إياه، وها هو ذا يشق طريقه بين الموائد ليصل إلي. كانت عيناه مشرقتين وعلى وجهه ابتسامة عريضة بادلته إياها فور جلوسه

بجانبي، في تلك اللحظة بالذات أدركت أن فصلا جديدا من حياتي سيبدأ قريبا.

انتهت بحمد الله